حطم صنمك

وكن عند نفسك صغيرًا

طبعة مزيدة ومنقحة

الطبعة الأولى

١٤٢٤ هجري - ٢٠٠٤ ميلادي

الطبعة الثانية

١٤٤٤ هجري - ٢٠٢٣ ميلادي

رقم الإيداع: ١٨٧٨/ ٢٠٠٤

الترقيم الدولي: I.S.B.N

٩٧٧-٦١١٩-٠٤-٢

حطم صنمك

وكن عند نفسك صغيرًا

مجدي الهلالي


بسم الله الرحمن الرحيم

لمن هذه الصفحات؟

لكـل داعـية وكـل خطـيب..

لكـل عـــالم وكـل عـــابـد..

لكل طالب علم وكل كاتب..

لكل صاحب موهبة أو نجاح..

لكل مـن يـبدأ طـريقه إلى الله..

لكـل مسـلم ومـسـلمة..

لنفسـي ولكـل مـن أحب..

المقَـدّمَة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد:

فمما لا شك فيه أن التربية الإيمانية لها أثر كبير وفعال في دفع المرء للقيام بأعمال البر بسهولة ويسر، فكلما ازداد الإيمان في القلب كانت آثاره العظيمة في السلوك، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢ ﴾ [الحج: ٣٢].

ومع الأهمية القصوى لإيقاد شعلة الإيمان في القلب والعمل الدائم على زيادته، يبقى أمر آخر على نفس الدرجة من الأهمية –بل قد يزيد– ينبغي أن نهتم به كاهتمامنا بالتربية الإيمانية، ألا وهو المحافظة على أعمالنا الصالحة التي نقوم بأدائها من كل ما يفسدها ويبعدها عن مظنة الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ...

ومن أهم الأمور التي يمكنها أن تفعل ذلك: إعجاب المرء بنفسه، ورضاه عنها، ورؤيتها بعين التعظيم.

هذا الداء الخطير الذي يتسلل بخبث إلى النفوس من شأنه أن يحبط العمل ويفسده، بل تصل خطورته إلى حد الوقوع في دائرة الشرك الخفي بالله عَزَّوَجَلَّ.

معنى ذلك أن الواحد منا قد يتعب ويبذل الكثير من أجل قيامه بعمل ما، ثم يأتي داء العُجب فيقضي عليه ويحبطه.

ويكفي لبيان خطورة هذا الداء أن رسول الله ﷺ عدَّهُ من المهلكات.

قال رسول الله ﷺ: «**الْمُهْلِكَاتُ ثَلَاثٌ: إِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ، وَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ**»[1].

ومن سمات هذا الداء أن لديه القدرة على التسلل بخبث إلى النفوس: نفوس العلماء، والعباد، والدعاة، والخطباء، والكُتَّاب، وأصحاب المواهب والنجاحات، فهو يعرف طريقه جيدًا إلى كل نفس، ولا يكاد يتركها إلا بعد أن يضخمها، ويُعظِّم قدرها في عين صاحبها.

إنه أمر خطير ينبغي الانتباه إليه، وعدم الاستهانة به، أو إنكار وجوده داخلنا، فنحن لا نريد أن نُفاجأ يوم القيامة بأعمال صالحة تعبنا وسهرنا وبذلنا الكثير من أجل القيام بها، ثم نجدها وقد أُحبطت بسبب هذا الداء.

ألا يكفينا الترهيب النبوي «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»؟![2]

---

(١) رواه البزار في البحر الزخار (٨/ ٢٩٥ برقم: ٣٣٦٦)، ابن عدي في الكامل (٥/ ١٨٨٢)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٣١٩).

(٢) رواه مسلم (برقم: ٩١)، وأبو داود (برقم: ٤٠٩١)، في كتاب الأدب، باب ما جاء في الكبر، والترمذي (برقم: ١٩٩٩) في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الكبر، وابن ماجة (برقم: ٤١٧٣) كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع.

وقولـه ﷺ: «**لَا يَـزَالُ الرَّجُـلُ يَذْهَـبُ بِنَفْسِـهِ حَتَّـى يُكْتَـبَ فِـي الْجَبَّارِيـنَ فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ**»(١).

فإن كنت في شك من أهمية هذا الأمر، وضرورة التشمير من أجل التخلص منه، فتأمل سـيرة رسـولنا الحبيب ﷺ، وصحابته الكرام، وكيف كانوا شديدي الحرص نحـو أي أثر من آثار هذا الـداء، وإغلاق الأبواب أمامه، مع اسـتصغارهم الدائم لأنفسهم، وتواضعهم لربهم.

أخرج ابـن المبارك في الزهد أن النبـي ﷺ قد أُتي له بطعام، فقالت له عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لو أكلت يا نبي الله، وأنـت متكئ كان أهون عليك، فأصغى بجبهته حتى كاد يمس الأرض بها، قال: «**بَلْ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَنَا جَالِسٌ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ، وَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ**»(٢).

وهذا أبو عبيدة بن الجراح وقد أمَّ قومًا يومًا، فلما انصرف قال: مازال الشـيطان بي آنفًا حتى رأيت أن لي فضلًا على من خلفي، لا أؤم أبدًا(٣).

وكان عتبـة بن غزوان يقول: فإني أعوذ بـالله أن أكون في نفسي عظيمًا وعند الله صغيرًا(٤).

... فإلى كل طالب علم، وكل داعية.

... إلى كل عالم وكل عابد.

---

(١) رواه الترمذي (برقم: ٢٠٠٠) في البر والصلة، باب ما جاء في الكبر.

(٢) جاء في زيادات نعيم بن حماد التي يرويها عن عبد الله بن المبارك في الزهد (٢/ ٥٣٢ تحقيق الأعظمي).

(٣) الزهد لابن المبارك (برقم: ٨٣٤، ص: ٢٨٧).

(٤) رواه مسلم (٤/ ٢٢٧٩ برقم: ٢٩٦٧) كتاب الزهد والرقائق.

... إلى كل مسلم ومسلمة.

إلى نفسي، وكل من أحب، كانت هذه الصفحات التي تدق لنا جميعًا ناقوس الخطر.

.. إنها دعوة لتحطيم الأصنام داخلنا، ولأن يكون كلٌّ منا عند نفسه صغيرًا.

.. فلنكن جميعًا نِعْمَ المجيبون، ولنتعامل معها على أننا بها المخاطبون، ولنُرِ الله من أنفسنا صدقًا في طلب التخلص والاحتراز من هذا الداء -داء الإعجاب بالنفس- عساه -سبحانه- أن يعيننا عليه ويلهمنا الرشد في التعامل معه والتحصن ضده؛ حتى نخرج من الدنيا عبيدًا مخلصين له، لا نرى فضلًا إلا فضله، ولا خيرًا إلا خيره: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور: ٢١].

• • •

الباب الأول

هل بداخلنا أصنام؟!

- تمهيد: لا غنى لأحد عن الله.
- الفصل الأول: الشرك الخفي.
- الفصل الثاني: أسباب تضخم الذات ووجود الصنم.
- الفصل الثالث: مظاهر الإعجاب بالنفس وتضخم الذات.
- الفصل الرابع: خطورة الإعجاب بالنفس.

تمهيـد
لا غنى لأحد عن الله

الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي خلقنا من العدم، فلم نكن قبل وجودنا في أرحام أمهاتنا شيئًا مذكورًا، كنا في التراب، وعندما شـاء الله لنا أن نخلق كانت النطفة فالعلقة فالمضغة فالجنـين، ثـم الخـروج إلى الدنيـا: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٧٨ ﴾ [النحل: ٧٨].

تولى -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- نشأتنا والقيام على شؤوننا، وأعطانا ما أعطانا من الأسباب التي تمكننا من العيش في الحياة.

هذه الأسباب من سـمع، وبصر، وعقل، وأجهزة وأعضاء،... لا يوجد لديها قدرة ذاتية للقيام بوظائفها، فالله عَزَّوَجَلَّ هـو الذي يمدها بهذه القدرة لحظة بلحظة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [يونس: ٢٢].

فلا قيمة لهذه الأسباب بدون المدد الإلهي المتواصل، فهو -سبحانه- حي قيوم، قائم على شؤون جميع خلقه.

لا تأخذه سنة ولا نوم

وكيف تأخذه سنة أو نوم؟!

من يمسك السماوات وهي مرفوعة بغير عمد؟!

من ذا الذي يحفظ الشمس في مدارها، ويُسيِّرها من الشرق إلى الغرب؟!

أمَّن هذا الذي يتولى نشأة الأجنة في أرحام الأمهات؟!

من الذي يطعمنا ويسقينا سواه؟! ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢].

من الذي يدبر أمر بلايين الخلايا داخل الجسم؟!

من الذي يجعل القلب يستمر في ضخ الدم، والكلية في تنقيته، والعضلات في الانقباض والانبساط والدم في الجريان، والرئة في التنفس، والأجهزة في العمل المتواصل؟!

من غيره يجعلنا ننام؟ ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

من الذي يصرف الرياح، ويحرك السحاب وينزل المطر؟ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الروم: ٤٨].

من الذي يتولى أمر الرزق لهذه الأعداد التي لا تُحصى من الخلائق؟ ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك: ٢١].

من الذي يدبر أمر النبات سواه؟ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ [الزمر: ٢١].

لا إله إلا الله

فلنتفكر في أنفسنا، وفيما خلق الله من السماوات والأرض، وليسأل كلٌّ منَّا نفسه: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؟! [فاطر: ٣].

من سواه يأتينا بالليل لنسكن فيه؟ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: ٧٢].

من سـواه يأتينا بالمـاء؟ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك: ٣٠].

من سـواه يجعلنا ننطق أو نسـمع.. أونضحك أو نبكي؟ ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم: ٤٣].

من سواه يُسيِّر الفلك في البحر والدواب في البر؟ ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١].

من غيره يجعل لنا الماء عذبًا، والحديد الصلب لينًا سهلًا؟!

لا حول ولا قوة إلا بالله

إننا بدون المدد الإلهي المسـتمر كالجهاز الكهربائـي عندما ينقطع عنه التيار؛ لا وزن له ولا قيمة! لن نرى بأعيننا، ولن نسـمع بآذاننا، سيتوقف القلب عن الخفقان، والدم عن الجريان، لا ضحك ولا بكاء، لا كلام ولا حراك، حياة مظلمة.. فالسـفن ستغرق في البحار، والطائرات ستسقط من السـماء، والسيارات ستقف بلا حراك، ستظلم السماء، ويتوقف الهواء... ولِـم لا؟ فلا غنى لأحد عن الله طرفة عين!

الشرك ظلم عظيم

فإن كان الأمر كذلك.. فأي ظلم يقع فيه العبد عندما يسأل غير الله، ويطلب منه المدد والعون؟!

أي ظلم هذا الذي يجعل العبد يعتقد في أي شيء آخر مع الله لجلب النفع أو لدفع الضر؟!

أيكون جزاء هذا العطاء المتواصل بالليل والنهار هو تجاهل مسببه، والتوجه إلى غيره بالسؤال؟!

أي جحود هذا الذي يقع فيه الإنسان عندما يشرك بربه؟!

فيا عجبًا كيفَ يُعصى الإلهُ أمْ كيفَ يجحدهُ الجاحدُ؟

• • •

الفصل الأول

الشـــرك الخفـــــي

- أنواع الشرك بالله.
- معنى الشرك الخفي.
- أمثلة من الواقع.
- حقيقة العُجب.
- حمد النفس!!
- الداء الخبيث.
- اللحظات العابرة.

الشرك الخفي

أنواع الشرك بالله

من معاني الــشرك بالله الاعتقاد في آخر مع الله أنه ينفــع أو يضر. هذا الاعتقاد يترجمه صاحبه في صــورة التعظيم لمن يشرك به، وكذلــك الاعتماد عليه في تصريف أموره وسؤاله حاجاته.

والشرك نوعان: شرك جلي ظاهر، وشرك خفي مستتر.

الشرك الجلي هــو الاعتقاد في آخر مع الله بالنفع أو الــضر، مثل الاعتقاد فيمن يســمونهم بالأولياء من الأحياء أو الأموات، وكذلك الاعتقاد في حجر أو شجر أو كوكب أو نجم أو ســاحر أو كاهن؛ ومن ثم تتوجه إليه القلوب بالتعظيم، والألسنة بالسؤال وطلب الحاجات.

وهو أمر خطير: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١].

معنى الشرك الخفي

أما الشرك الخفي فهو الذي يَــخْفَى وجوده على الإنسان من الناحية الشكلية، بمعنى أنه لا يعترف بوجوده لكنه متلبس به من الناحية الموضوعية.

ومن أهم صور الشرك الخفي رؤية الإنســان لنفسه بعين التعظيم، واعتقاده في الأســباب التي حباه الله إياها أنها ملك ذاتي له، يمتلكها، ويستدعيها في الوقت الذي يشاء، وأنه يَفْضُلُ بها غيره... هذا الاعتقاد قد يكون في جزئية صغيرة، وقد يكون في كل الجزئيات التي تشكل شخصية الإنسان.

أمثلة من الواقع

فإذا ما أردنا أمثلة عملية توضح مفهوم شرك النفس والذي يطلق عليه العلماء: العُجب، سنجد أمامنا الكثير والكثير.

فالطالب الــذي حباه الله موهبة الفهم والحفظ قد يقع في هذا النوع من الشرك، إذا ما اعتقد في نفسه القدرة الذاتية على الفهم والحفظ.

والمرأة التي تحســن إعداد الطعام قد تقع في نفس الأمــر، باعتقادها في خبراتها وقدرتها على القيام بذلك متى شاءت.

وكذلــك المدرس إذا اعتقد في قدرته على شرح الدروس، معتمدًا على إمكاناته، وخبراته، وتاريخه الطويل في التدريس.

والداعيــة الذي يعظ الناس، ويدعوهم فيتأثرون بحديثه، قد يقع في نفس الأمر إذا ما اعتقد في بلاغته وحفظه وقدرته على التأثير.

وكذلك كل من يظن أن عنده شــيئًا ذاتيًّا ليس عنــد غيره، مهما كان حجم هذا الشيء.

رأى الحسن البصري كساء صوف على فرقد السبخي فقال: يا فرقد لعلك تحسب أن لك بكسائك على الناس فضلًا[١].

حقيقة العُجب

يقول ابن المبارك: العُجب أن ترى أن عندك شيئًا ليس عند غيرك[٢].

فهذا هو جوهر العُجب: أن ترى أن عندك شيئًا ذاتيًّا تتملكه، وليس عند غيرك.

أن ترى أن عندك مالًا، أولادًا، ذكاءً، موهبة، كساءً،... ليس عند غيرك.

فإن قلت: ولكن بالفعل عندي من هذه الأشياء ما لا أجده عند غيري.

نعم كلٌّ منَّا عنده أشياء ليست عند غيره، ولكن هذه الأشياء ملك من؟!

يقول تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [المائدة: ١٢٠]. فكل ما معنا من أصغر شيء إلى أكبره ملك لله عَزَّوَجَلَّ، أعارنا إياه لننتفع به، ونمتحن فيه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧].

فلا يملك أحدٌ -غير الله- شيئًا في هذا الكون ولو مثقال ذرة: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢﴾ [سبأ: ٢٢].

فإن اعتقد أحدنا أن المال الذي معه هو ماله لا مال الله، وفرح به، واطمأن لوجوده معه فهذا هو الإعجاب بالمال كمن قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

---

(١) الزهد للحسن البصري - تحقيق: د. محمد عبد الرحيم محمد (ص: ١٥٩) دار الحديث - القاهرة.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٨/ ٤٠٧) مؤسسة الرسالة - بيروت.

ويتســـع هذا المفهوم ليشمل كل شيء يفرح به الإنسان، ويطمئن إلى وجوده معه على أنه ملك ذاتي له.

حمد النفس

ومن معاني العُجب كذلك رؤية أحدنا لنفسه بعين الرضا والفرح فيما علمت أو عملت وحمدها على ذلك، ولو في جزئية صغيرة، ونســـيان أن الله عَزَّوَجَلَّ هو صاحب كل فضل نحن فيه.

قال المحاســـبي: العُجب هو حمد النفس على ما عملت أو علمت، ونســـيان أن النعم من الله عَزَّوَجَلَّ[١].

ويؤكد على هـــذا المعنى أبو حامد الغزالي فيقول: العُجب هو اســـتعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها للمنعم[٢].

سُـــئل رياح القيسي: يا أبا مهاجر، ما الذي أفسد على العمال أعمالهم؟ فقال: حمد النفس، ونسيان المنعم[٣].

فالعُجب خاطر يهيج في داخلك، يدعوك لاستعظام عملك واستكثاره، فتقول في نفســـك: لقد قويت وصبرت واستطعت فعل كذا... لقد جاهدت... لقد فهمت كذا... صمت في يوم شديد الحر... لقد أنفقت كذا... فرحًا من نفسك بقوتها، معظمًا لها مع نسيان نعمة الله عليك في القيام بذلك[٤].

(١) الرعاية لحقوق الله للمحاسبي (ص: ٤٢٠) – دار اليقين – المنصورة – مصر.
(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٥٧٤) – دار الحديث – القاهرة.
(٣) الرعاية لحقوق الله (ص: ٤٢٩).
(٤) المصدر السابق – بتصرف (ص: ٤٢١، ٤٢٢).

الداء الخبيث

إعجاب المرء بنفسه ولو في جزئية صغيرة يؤدي به إلى استعظامها، ورؤيتها أكبر من غيرها في هذه الجزئية، والاعتقاد في نفعها، وفي أنه يمكنه بذاته أن يستدعي موهبته في أي وقت يشاؤه ليظهر من خلالها فضله وتميزه على غيره.

هذا المفهوم قد يصغر عند البعض، وقد يكبر عند البعض الآخر.

ويظن الكثير منا أن داء الإعجاب بالنفس لا يصيب إلا أهل التصدر بين الناس، وأصحاب الإمكانات والمواهب العالية فقط، والحقيقة أن هؤلاء بالفعل أكثر عرضة من غيرهم للإصابة بهذا المرض، إلا أنه لا يصيب هؤلاء فقط، بل يحاول مع الجميع، وينتظر اللحظة المناسبة للتمكن من نفس أي إنسان.

فإن كنت في شـــك من هذا فما تفسيرك لحالة فقير معدم مجهول بين الناس، ومع ذلك هو عند نفسه كبير، بل يرى كذلك تميزه على غيره بما لديه من مواهب متوهمة؟!

إنـــه داء خبيث يعرف طريقـــه جيدًا إلى النفوس، فما من موقـــف إيجابي يقوم به الإنسان -قولًا كان أو فعلًا- إلا كان لهذا الداء محاولة للتأثير على نفسه، والعمل على تضخيمها والإعجاب بها ونسيان المنعم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قيـــل لداود الطائي: أرأيت رجلًا دخل على هـــؤلاء الأمراء، فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر؟! فقال: أخاف عليه السوط. قيل: إنه يقوى عليه (يعني أنه وطَّن نفسه على احتماله إن وقع واحتسابه عند الله تعالى)، فقال: أخاف عليه السيف. قيل: إنه يقوى عليه. قال: أخاف عليه الداء الدفين؛ العُجب)[١].

---

(١) تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين لابن النحاس (ص: ٥٢).

فالعُجب آفة العقل -أي عقل- يدعوه دومًا إلى استعظام قوله أو عمله أو أفكاره وحمد نفسه على ذلك.

اللحظات العابرة

.. إذن فالعُجب داء لا يكاد يسلم منه أحد، وأخطر ما يقوم به هو تضخيمه للذات؛ ومن ثم تكوينه لصنم داخلي في نفس صاحبه يحمل اسمه، مع ملاحظة الفارق بين لحظات الإعجاب بالنفس العابرة، وبين تأصل هذا الداء داخل الإنسان.

ومع ذلك فإن تجاوب المرء مع تلك اللحظات وعدم مقاومتها سيؤدي إلى تمكن الداء من نفسه شيئًا فشيئًا؛ ومن ثم تكوين الصنم.

تأمل معي هذا الخبر لتدرك خطورة تلك اللحظات، والعمل على مقاومتها وإغلاق الأبواب أمامها؛ تقول السيدة عائشة: لبست مرة درعًا لي جديدة فجعلت أنظر إليها، فأعجبت بها. فقال أبو بكر: ما تنظرين؟ إن الله ليس بناظر إليك، قلت: ومم ذاك؟ قال: أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته الله عَزَّوَجَلَّ حتى يفارق تلك الزينة؟ قالت: فنزعته فتصدقت به. فقال أبو بكر: عسى ذلك أن يكفِّر عنك [1].

• • •

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٣٧)، وجامع الأحاديث للسيوطي (٢٥/ ١٨٣ برقم: ٢٧٨٣٩)، وذكره المتقي الهندي في كنز العمال (١٥/ ٤٥٩ برقم: ٤١٨٣٢)، وقال: له حكم الرفع.

الفصل الثاني

أسباب تضخم الذات ووجود الصنم

- الجهل بالله عَزَّوَجَلَّ.
- الجهل بالنفس.
- إهمال تزكية النفس.
- كثرة الأعمال الناجحة.
- كثرة المدح.
- علو اليد ونفوذ الأمر.
- قلة مخالطة الأكفاء.
- تربية الأبوين (النشأة الأولى).
- وجود نقاط ضعف في شخصية الفرد.
- الاشتهار بين الناس.

أسباب تضخم الذات ووجود الصنم

مما لا شك فيه أن هناك أسبابًا عديدة من شأنها أن تهيئ المناخ المناسب لتسلل داء العُجب إلى النفوس، من أهمها: (١)

- الجهل بالله عَزَّوَجَلَّ.
- الجهل بالنفس.
- إهمال تزكية النفس.
- كثرة الأعمال الناجحة.
- كثرة المدح.
- علو اليد ونفوذ الأمر.
- قلة مخالطة الأكفاء.
- تربية الأبوين (النشأة الأولى).
- وجود نقاط ضعف في شخصية الفرد.
- الاشتهار بين الناس.

(١) أهم وأخطر سبب لتضخم الذات هو غربة القرآن بمعناه الحقيقي... فحين ابتعد القرآن عن أداء دوره ووظيفته المتفردة في الهداية والشفاء والتغيير التام الكامل للشخصية الإسلامية... ظهرت تلك السلبيات الكثيرة التي نعاني منها ويقف على رأسها تضخم الذات.

أولًا: الجهل بالله عَزَّوَجَلَّ

العُجب -كما تم تعريفه في الصفحات السابقة- هو أن ينسب المرء لنفسه نجاحاته وتوفيقه فيما يقوم به من أعمال، وينسى أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي أعانه على ذلك.

معنى ذلك أن الجهل بالله من أهم الأسباب المؤهلة لإعجاب المرء بنفسه، فلو أيقن كلٌّ منا بأن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يمده بأسباب النجاح والتوفيق والفلاح ما دخل العُجب إلى نفسه، وكيف يعجب بشيء ليس له دخل في وجوده؟!

إن كل صلاة نصليها، وصيام نصومه، وذكر نذكره، ودعاء ندعوه، ونفقة ننفقها... كل ذلك وغيره من صور البر المختلفة، تتم بفضل وإعانة من الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

فالله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ هو مصدر كل خير نفعله؛ يمدنا بأسبابه لحظة بلحظة، ولو شاء لمنعنا إياها، ألم يقل لرسوله وحبيبه ﷺ: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾؟

[الإسراء: ٨٦، ٨٧].

فلولا فضل الله ما صلينا ولا صمنا ولا تصدقنا ولا أسلمنا ولا آمنا.

ففي الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»[1].

---

(١) هذا جزء من حديث طويل وأصل عظيم من أصول الإسلام، وهو من الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، رواه مسلم (٤/ ١٩٩٤ برقم: ٢٥٧٧) في كتاب البر والصلة، باب: تحريم الظلم، والترمذي (برقم: ٢٤٩٥) كتاب صفة القيامة، باب برقم ٤٨ (٤/ ٦٥٦).

بل إن كل خاطرة تخطر على بال الإنسان تدعوه لخيرهي من الله عَزَّوَجَلَّ..

ففي الحديث: «**إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ الْأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**». ثم قرأ: ﴿ **ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ** ﴾ [البقرة: ٢٦٨] [١].

وعندما تغيب هذه الحقيقة عن ذهن المرء، فما أسهل تسلل داء العُجب إليه فيفرح بنفسه، ويعجب بها، وينسب الفضل إليها، كلما عمل عملًا أو قال قولًا واستحسنه الناس.

قال مسروق: بحسب امرئ من العلم أن يخشى الله، وبحسب امرئ من الجهل أن يعجب بعلمه[٢].

ثانيًا: الجهل بالنفس

ليس للإنسان -أي إنسان- مقومات ذاتية للنجاح أو الفلاح.. هكذا خلقه الله عَزَّوَجَلَّ، يستوي في ذلك الأنبياء والمرسلون مع الخلق أجمعين: ﴿ **قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ** ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وتأمل معي هذا الموقف من النبي ﷺ: عن عبد الله بن حوالة الأزدي قال: بَعَثَنا رسول الله ﷺ لِنَغْنَمَ على أقدامنا فرجعنا فلم نغنمْ شيئًا، وعرَف الجُهدَ في وجوهنا، فقام فينا فقال: «**اللَّهُمَّ لا تَكِلْهُمْ إِلَيَّ فَأَضْعُفَ عَنْهُمْ، وَلَا تَكِلْهُمْ إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَيَعْجَزُوا**

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٢١٩برقم: ٢٩٨٨) كتاب تفسير القرآن، وقال: حسن غريب، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٧٨ برقم: ٩٩٧)، والنسائي (٦/ ٣٠٥ برقم: ١١٠٥١) واللمة: المس.

(٢) أخلاق العلماء للآجري (ص: ٦٣) - دار القلم - دمشق.

عَنْهَا، وَلَا تَكِلْهُمْ إِلَى النَّاسِ فَيَسْتَأْثِرُوا عَلَيْهِمْ»[١].

فنحن جميعًا نستمد قوتنا من الله عَزَّوَجَلَّ لحظة بلحظة، وآنـًا بآن.

«اللهُمَّ بِكَ أَصْبَحنَا وبِكَ أَمْسَيْنا وبِكَ نَحْيَا وبكَ نَمُوت..» [٢]

نعم أعطانا الله عَزَّوَجَلَّ أسبابًا ومواهب وإمكانات كالذكاء، أو اللباقة، أو البلاغة، ولكن هذه الإمكانات ليس لها أي قيمة بدون القوة الفاعلة من الله عَزَّوَجَلَّ.

هل رأيت طفلًا رضيعًا -حديث الولادة- يستطيع أن يطعم نفسه، أو يسقيها، أو ينظف جسمه أو يصرف عن نفسه الأذى؟!

ما درجة اعتماده على أمه في هذه الأمور وغيرها؟ وماذا لو تركته يومًا واحدًا دون رعاية؟

حاجتنا إلى الله

إن حاجتنا إلى الله عَزَّوَجَلَّ أشد وأشد من حاجة هذا الرضيع إلى أمه، فالقلب على سبيل المثال يحتاج إلى الله في كل لحظة؛ ليستمر في الخفقان واستقبال الدم المحمل بثاني أكسيد الكربون وإعادة تحميله بالأكسجين وضخه مرة أخرى إلى الجسم فيما لا يقل عن سبعين مرة في الدقيقة.

بلايين الخلايا داخل جسم الإنسان تحتاج في كل لحظة إلى تعاهد ورعاية للاستمرار في أداء وظائفها الحيوية، وعدم التحول إلى خلايا سرطانية.

---

(١) رواه أحمد (٣٧/ ١٥١ برقم: ٢٢٤٨٧)، وأبو داود (٤/ ١٨٧ برقم: ٢٥٣٥)، والحاكم (٤/ ٤٧١ برقم: ٨٣٠٩)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وحسنه ابن حجر في الفتح (٦/ ٢٩).

(٢) أخرجه أبو داود (برقم: ٥٠٦٨) واللفظ له، والترمذي (برقم: ٣٣٩١)، وابن ماجة (برقم: ٣٨٦٨)، والنسائي في السنن الكبرى (برقم: ١٠٣٩٩) باختلاف يسير، وأحمد (برقم: ١٠٧٧٣) مختصرًا.

تخيل نفسك وقد أوكل إليك إدارة شؤون جسمك من حواس وغدد وأعضاء وأجهزة... ملايين العمليات الحيوية التي تتم كل لحظة عليك أن تديرها بنفسك.

هل تستطيع فعل ذلك ولو للحظة واحدة؟!

إذن فعندما يوكل العبد لنفسه للقيام بأى مهمة ولو لطرفة عين دون إعانة من الله عَزَّوَجَلَّ، فإنه يوكل للضعف والضياع؛ لذلك كان من دعائه ﷺ: «**وَإِنَّكَ إِنْ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي تَكِلْنِي إِلَى ضَعْفٍ وَعَوْرَةٍ وَذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ، وَإِنِّي لَا أَثِقُ إِلَّا بِرَحْمَتِكَ**»(١).

هذه هي إحدى الحقائق الأساسية التي يقوم عليها بنيان الإنسان، وإذا ما نسيها فما أسهل وقوعه فريسة لداء العُجب. سينخدع في الأسباب التي حباه الله إياها، سيظن أنه ذكي بطبعه، بليغ ينطق بأسلس العبارات دون تكلف، لديه القدرة على التأثير في الناس، قوي بما لديه من عضلات، خبير بما يعرف من معلومات...

نعم، لديه هذه الإمكانات، ولكن ما قيمتها بدون المدد الإلهي المتواصل؟! ألم يقل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لرسوله ﷺ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧].

---

(١) رواه أحمد (٣٥/ ٥٢٠ برقم: ٢١٦٦٦) و (٧/ ٣٢ برقم: ٣٩١٦)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٣٣)، والطبراني في الكبير (برقم: ٤٨٠٣)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٩٧ برقم: ١٩٩٠٠).

الجهل بطبيعة النفس

من تعريفات النفس البشرية أنها مجمع الشهوات والغرائز داخل الإنسان، فهي تسعى دائمًا للحصول على شهواتها وحظوظها من كل فعل يفعله العبد، جاهلة لا تنظر إلى العواقب، كالطفل الذي لا يمل من الإلحاح على أبويه في الحصول على شيء قد يكون فيه ضرر كبير عليه.

نفس أمارة بالسوء، لا تأمر صاحبها إلا بما تراه يحقق مصلحتها...

شحيحة تحب الاستئثار بكل خير.

شهوات النفس

وشهوات النفس تنقسم إلى قسمين:

شهوات جلية

من طعام، وشراب، ومال ونساء وذهب، وعقارات: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وشهوات خفية

من حب للتميز، والعلو على الآخرين، وأن يُشار إليها بالبنان، وإذا ما أردت مثالًا للشهوة الخفية فتأمل ما يحدث لك عندما يمدحك شخص ما.

ألست تشعر بالسعادة والانتشاء، وتظل تذكر كلمات المديح في غدوك ورواحك؟

إن الشعور الذي يتملكنا في مثل هذه اللحظات يطلق عليه الشهوة الخفية.

معنى ذلك أن النفس لن تأمر صاحبها إلا بما يحقق شهواتها، فإذا ما ترك لها أحد الزمام، وأحسن الظن بها فسيصبح حتمًا أسيرًا لها.

إن تكلم فستأمره بالحديث عن إنجازاته.

وإن صلى بالليل حثته على الإعجاب بها، وأنه أفضل من غيره النائم...

إن أمر بمعروف أو نهى عن منكر ألحَّت عليه لاستحسان فعله، ورضاه عنه..

إن قرأ ورده القرآني وأكرمه الله ببعض المعاني ثارت بداخله بالنشوة والفرح والشعور بالعلو على غيره..

وهكذا ستعمل دومًا على أخذ حظها من كل فعل يقوم به الإنسان.

من هنا يتضح لنا حقيقة النفس، هذه الحقيقة التي إن غابت عن العبد تسلل إليه داء العُجب وتمكن منه.

ثالثًا: إهمال تزكية النفس

ومن أسباب تضخم الذات: عدم الانتباه لهذا الأمر منذ البداية، وبالتالي عدم أخذ الحذر من هذا الداء، وتركه يتسلل إلى النفس ويتمكن منها.

فطالب العلم إن لم يكن هذا الموضوع من أوائل ما يتعلمه ويتربى عليه، فسيكون العلم نفسه بابًا واسعًا يتسلل إليه العُجب من خلاله. والداعية قد يقع فريسة لذلك، وكذلك المدرس، والكاتب، والخطيب، وكل من يقوم بعمل إيجابي ينال استحسان الناس.

كل هؤلاء، ومن شاكلهم إن لم يهتموا بتحصين أنفسهم وتزكيتها منذ البداية، فسيجد هذا الداء مادة جيدة يدخل من خلالها إلى نفوسهم، ويتكاثر فيها، لتكبر الذات وتتضخم.

يقول أبو حامد الغزالي: فالعبد إن لم يشتغل أولًا بتهذيب نفسه، وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات، بقي خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم -أي علم كان- صادف العلم من قلبه منزلًا خبيثًا فلم يطب ثمره، ولم يظهر في الخير أثره... فالعلم تحفظه الرجال، فتحوله على قدر هممها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبرًا والمتواضع تواضعًا[1].

رابعًا: كثرة الأعمال الناجحة

قال الحسن البصري: لو كان كلام بني آدم كله صدقًا، وعمله كله حسنًا يوشك أن يخسر.

قيل: وكيف يخسر؟ قال: يعجب بنفسه[2].

وقال أيضًا: لو أن قول ابن آدم كله حق، وفعله صواب لَجُنَّ.

فكثرة الأعمال الناجحة التي يقوم بها الإنسان تُشكِّل سببًا قويًّا في إمكانية تسرب داء العُجب إليه إن لم ينتبه لذلك، فما أسهل اقتناعه بأنه -بالفعل- مميز عن الآخرين، ولم لا وكلامه دومًا مؤثر في الناس ولا يكاد يترك فرضًا بالمسجد، مواعيده منضبطة، حلو المعشر، لين الجانب، ناجح مع أولاده، منظم في شؤونه...

إنه أمر شديد على النفس أن يكون صاحبها هكذا ولا يخالجها لحظات العُجب.

روى الحاكم عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «ما أصاب داود ما أصابه بعد القدر إلا من عجب، عَجِب به من نفسه، وذلك أنه قال: يارب، ما من ساعة من ليل أو نهار

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٥٣٩).

(٢) شعب الإيمان للبيهقي (٩/ ٤٠٠ برقم: ٦٨٧٠).

إلا وعابد من آل داود يعبدك، يصلي لك، أو يسبح، أو يكبر، وذكر أشياء، فكره الله ذلك. فقال: يا داود، إن ذلك لم يكن إلا بِي، فلولا عوني ما قويت عليه. وجلالي لأكِلنَّك إلى نفسك يومًا. قال: يارب فأخبرني به، فأصابته الفتنة ذلك اليوم»(١).

خامسًا: كثرة المدح

مدح شخص ما في وجهه من أخطر أسباب تضخم الذات، وهذا أمر نلمسه جميعًا، ولقد انزعج رسول الله ﷺ عندما رأى رجلًا يمدح آخر في وجهه فقال له: «**وَيْحَكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، لَوْ سَمِعَهَا مَا أَفْلَحَ**»(٢).

لماذا لا يفلح؟

لأنه سيصدق نفسه بما استمع إليه من عبارات المديح، فينتشي ويتعاظم، ويفتر عن العمل والاجتهاد، وينسى ذنوبه.

وبكثرة المدح، تترسخ هذه الحقيقة داخل النفس ويوقن بأنه بالفعل مميز فيشتد استعلاؤه، ونظرته الفوقية لنفسه، فيقترب شيئًا فشيئًا إلى الهلاك وعدم الفلاح.

قال الماوردي: وللإعجاب أسباب، فمن أقوى أسبابه كثرة مديح المتقربين، وإطراء المتملقين(٣).

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٤٧٠ برقم: ٣٦٢٠) وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي (٥/ ٤٥٣ برقم: ٧٢٥٣). وصححه ابن حجر في إتحاف المهرة (٧/ ٦٩١).

(٢) رواه مسلم واللفظ له (٤/ ٢٢٩٦ برقم: ٣٠٠٠) في الزهد، ورواه البخاري في مواضع بألفاظ مختلفة في الشهادات، باب إذا زكى رجلٌ رجلًا (برقم: ٢٦٦٢)، وفي كتاب الأدب، باب ما يكره من التمادُح (برقم: ٦١٦٢) وباب في قول الرجل ويلك.

(٣) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص: ٢٣٤) - دار الكتب العلمية - بيروت.

سادسًا: علو اليد ونفوذ الأمر

فكل صاحب سلطان، ولو صغر، سيجد أمامه مساحة يتحرك فيها دون اعتراض أومقاطعة من أحد، وسيجد كذلك من يمدحه ويثني عليه، ومن النادر أن يجرؤ أحد على انتقاده؛ مما يؤدي إلى تسرب داء العُجب لنفسه، واستعظامه لها.

فالنمرود -على سبيل المثال- لم يكن ليدعي الربوبية لو كان فقيرًا مجهولًا بين الناس، قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فملكه -كما بيَّن القرآن- كان سببًا في تبجحه، وتطاوله وادعائه الربوبية.

سابعًا: قلة مخالطة الأكفاء وعدم وجود النُّصحاء

عندما يجد صاحب الإمكانات والنجاحات كل من حوله دونه في المستوى، فإن هذا بلا شك من شأنه أن يُهيئ نفسه أكثر وأكثر لاستقبال داء العُجب، واستفحاله فيه، ولم لا وهو يرى رأيه دومًا هو الرأي الصائب، وتفكيره هو التفكير السديد، تتعلق به الأنظار لتسمع وجهة نظره في مجريات الأحداث...

ومما يلحق بهذا السبب: عدم وجود النصحاء بجوار الشخص، فالنصيحة وإبداء الملاحظات على الأداء لهما دور كبير في تحجيم الإنسان، وعدم تضخيم ذاته.

فإذا ما غابت النصيحة عنه، وجد العُجب الطريق ممهدًا للسيطرة على نفسه؛ لذلك كان عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: رحم الله امرأً أهدى إليَّ عيوبي[1].

---

(١) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (١/ ٣٢).

ثامنًا: تربية الأبوين (النشأة الأولى)

قد تكون التربية الأولى في المنزل لها دور كبير في تضخيم الذات، وذلك من خلال اهتمام الأبوين بإشعار أبنائهما بتميزهم على أقرانهم، فهم الأشرف نسبًا، أو الأعلى جاهًا، أو الأكثر مالًا، أو الأحسن أثاثًا... مع كثرة مدحهم، وذم الآخرين أمامهم، وعدم تعويدهم على مساعدة الآخرين، ولا حب الفقراء والمساكين، وكذلك عدم ترشيد مواهبهم وعدم ربطها بالمنعم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فيولِّد كل هذا اعتقادًا عند الأبناء بأنهم أفضل من غيرهم؛ مما يجعلهم أكثر عرضة للإصابة بهذا المرض. ويلحق بهذا السبب أيضًا: تمثل الداء في أحد الأبوين أو كليهما، فيسرق الابن الطبع منهما كما قال الشاعر:

مشى الطاووسُ يومًا باختيالٍ فقلدَ شكلَ مشيتِهِ بنوهُ
فقالَ: علامَ تختالون؟ قالوا: بدأتَ بهِ ونحنُ مقلدوهُ
أما تدري أبانا كلُّ فرخ يحاكي في الخطى من أدبوهُ
فقوِّم خطوكَ المعوجَّ واعدلْ فإنَّا إن عدلت معدلوهُ
وينشأُ ناشئُ الفتيانِ منا على ما كان عودُه أبوهُ

تاسعًا: وجود نقاط ضعف في شخصية الفرد أو في البيئة المحيطة به

فيتولد عن ذلك محاولته الدائمة لإثبات ذاته، وتعويض نقصه بشتى الطرق.

فعلى سبيل المثال: قد يجد المرء نفسه في بيئة عمل، أو دراسة، ومن حوله من الأقران متميزون بمواهب متنوعة، فربما ينتابه شعور بالدونية، وأنهم أعلى منه، وبدلًا من الرضى بواقعه الذي حباه الله إياه قد تجده يتصنَّع التكبر حتى يصير خُلقًا له..

قال المأمون: ما تكبَّر أحد إلا لنقص وَجَدَهُ في نفسه، ولا تطاول إلا لوهن أحس من نفسه.

وقال ابن المعتز: لما عرف أهل النقص حالهم عند ذوي الكمال، استعانوا بالكبر، لِيُعظِّم صغيرًا، ويرفع حقيرًا.. وليس بفاعل(١).

عاشرًا: الاشتهار بين الناس

الاشتهار بين الناس فتنة عظيمة. قال رسول الله ﷺ: «**كَفَى بِالْمَرْءِ فِتْنَةً أَنْ يُشَارَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ**»(٢).

وقال بعض السلف: المتكلم ينتظر الفتنة، والمنصت ينتظر الرحمة(٣).

ولِمَ لا تكون فتنة، وهو يتكلم والناس ينصتون، يدعو والناس يؤمِّنون، يترك نفسه عرضة لمدح المادحين، وتملق المتملقين؟!

تقترب منه الأضواء، فلا يستطيع دفعها.. يكبر ظله، فيصدق نفسه أنه كبير. فتتواجد من هذا كله التربة الخصبة لنمو العُجب وتضخم الذات، وبناء الصنم داخل ذلك الشخص.

جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: إن قومي قدموني فصليت بهم، ثم

(١) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٣٢).

(٢) أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ٢٤٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (برقم: ٦٩٧٩)، ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد، طبعة دار المنهاج، تحقيق: سليم حسين أسد (٢١/ ٤٦٢ برقم: ١٨٠٧٦)، والترمذي (٤/ ٦٣٥ برقم: ٢٤٥٣) كتاب صفة القيامة، وابن المبارك بمعناه في الزهد زوائد نعيم (ص: ١٣ برقم: ٤٦)، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول، باب ما جاء في الشهرة (برقم: ٣٠).

(٣) الزهد لابن المبارك (ص: ١٨ برقم: ٥٤).

أمروني أن أقص عليهم ففعلت، فقال له عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: صلِّ ولا تقص عليهم فتردد إلى عمر ثلاث مرات وأربع، فقال له عمر: لا تقص فإني أخاف عليك أن ترفع نفسك فيضعك الله قبضة[(١)].

وفي رواية قال عمر: أخاف أن تنتفخ فتبلغ الثريا.

فهذه أكثر الأسباب التي تُيسِّر دخول داء العُجب إلى النفس وتمكنه منها، وإن كان من النادر أن تكون كلها مجتمعه في شخص ما، إلا أن كل سبب منها كفيل بأن يكون مادة جيدة لتسلل العُجب إلى داخل الإنسان. وكلما كثرت الأسباب كان تأثير هذا الداء على النفس أشد.

• • •

(١) الزهد للإمام أحمد (ص: ١٢٢) والأثر في تحذير الخواص من أكاذيب القصاص تحقيق الصباغ (صفحة: ١٨٢) وكذالك راجع القصاص والمذكرين لابن الجوزي تحقيق الصباغ (صفحة: ٢٠٢)، وبهامش الكتابين العزو إلى من أخرجهما من الأئمة.

الفصل الثالث

مظاهر الإعجاب بالنفس وتضخم الذات

- كثرة الحديث عن النفس.
- طلب الأعمال والتقدم إليها.
- صعوبة التلقي من الغير أو قبول النصيحة.
- استصغار الآخرين.
- المَنّ بالعطايا.
- كثرة أحلام اليقظة بالاشتهار بين الناس.
- التعالي على الناس.
- أمثلة من الواقع.

مظاهر الإعجاب بالنفس وتضخم الذات

عندما يرضى الشخص عن نفسه ويعجب بها ويستعظمها، فإن هذا من شأنه أن ينعكس على خواطره وأفكاره وتصوراته، وسلوكه مع الآخرين، ومظاهر ذلك كثيرة، نذكر منها:

كثرة الحديث عن النفس

فتجد أحدنا يُكثر من الحديث عن نفسه ويزكيها، وخاصة إذا أحس بتميزه في جانب ما.

فالأب يتفاخر بأولاده وبطريقة تربيته لهم.

والموظف يتباهى بانضباطه في عمله وعدم تأخره ولو يومًا واحدًا عن موعد الحضور.

والطالب يتحدث عن كفاءته في المذاكرة، وقدرته على الفهم وحل المسائل الصعبة.

والداعية يُكثر من الحديث عن نفسه، وإنجازاته، ومدى التفاف الناس حوله، وتأثرهم به...

وربة المنزل تتباهى ببيتها ونظافته وترتيبه، فتنسب العمل لنفسها ولا ترجعه إلى فضل ربها... وهكذا.

طلب الأعمال والتقدم إليها

من مظاهر تضخم الذات، رؤية الشـــخص أنه أهل للقيام بالأعمال التي يرى في نفسه أنه مميز فيها.

فالمدرس يُقدِّم نفسه للآخرين لتدريس المادة الصعبة التي أعيت غيره.

وربة المنزل تُقدِّم نفسها لعمل هذا النوع من الطعام الذي لا يُحسنه غيرها.

وصاحب الدعوة يُقدِّم نفســه لمناظرة فلان الذي يُثير الشــبهات، ولسان حاله يقول: دَعوه لي، فأنا أعرف كيف أتعامل مع هؤلاء... وهكذا.

صعوبة التلقي من الغير أو قبول النصيحة

مـن مظاهـر (الأنـا) أو تقديـس الـذات: عدم قـدرة صاحبهـا على قبـول النقد بسـهولة في الـشيء الـذي يـرى نفسـه فيـه، وكذلـك عـدم القـدرة على الاسـتماع أو التلقـي مـن الآخريـن، أو قبول النصـح منهـم، وبخاصـة في الأمور التي يشـعر فيها بتميزه ونبوغه.

فمدرس اللغة العربية يصعب عليه تلقي معلومة في البلاغة مثلًا من شـــخص ليس في مجاله، وكذلك معلم القرآن، والمهندس، والطبيب،...

لذلـــك نجد الحوار بين هـــؤلاء، وبخاصة الأقران منهم كحوار الطرشـــان، لا يسمع أحد منهم لأحد!

ومن صور ذلك أيضًا الاســتنكاف عن سؤال الغير في شيء لا يعرفه، وبخاصة إذا ما كان أصغر منه سنًّا أو جاهًا أو خبرة.

استصغار الآخرين

ومن مظاهر تقديس النفس كذلك: انتقاص الآخرين، ورؤية النفس دائمًا أعلى وأفضل منهم، وبخاصة في الجزئية المتضخمة عنده، ســواءً أكانت في حسب أم نسب أم مال، أم ذكاء، أم ألقاب،....

فــتراه يأنف من التعامل أو التواد مع من هم أقل منه في المســتوى؛ فإن كان من أصحاب الألقاب صعبت عليه مصاحبة مســاعديه ومن هم أقل منه رتبة، وإن كان مــن أصحاب الأموال صعب عليه الجلوس مع الفقراء، وإن كان من أصحاب الجاه عزَّت عليه مصاحبة المساكين،...

ولقد كان الصحابة يخشون من هذه الآفة، فهذا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخاف أن يكون لديه بقية من كبر واســتعظام النفس لكونه عربيًّا، وأنه أفضل من ســلمان الأعجمي، فأراد أن يمحوها ويتأكد من خلو نفسه منها بطلبه من سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يتزوج ابنته.

أخرج ابن المبارك في الزهد أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لسلمان:

يا ســلمان ما أعلم من أمر الجاهلية شــيئًا إلا وضعه الله عنا بالإسلام، إلا أنا لا ننكح إليكم ولا ننكحكم، فهلُمَّ فلنزوجك ابنــة الخطاب. قال: أَفِرُّ والله من الكبر. قال سلمان: فتفر منه وتحمله عليَّ؟! لا حاجة لي به[(١)].

الـمَنُّ بالعطايا

من آثار رؤية النفس بعين الاســتعظام، ونســيان أن الله عَزَّوَجَلَّ هو صاحب كل

(١) الزهد لابن المبارك (ص: ٥٢) في زيادة نعيم بن حماد.

فضل ومنَّة: أن صاحبها لا يُعطي عطية لأحد، ولا يُقدم له خدمة إلا ويَمُنّ عليه بها، وينتهز الفرصة المناسبة لتذكيره بخدماته وعطاياه، بل يعمل كذلك على استنطاق لسانه بمدحه وشكره، وقد يغضب منه إذا ما قصر في ذلك، ويصل به الأمر أحيانًا إلى أن يشكو لغيره على نكرانه للجميل.

كثرة أحلام اليقظة بالاشتهار بين الناس

أما مجال خواطر الإنسان وحديث نفسه، فتجده كثيرًا ما يحلم بالشهرة وارتفاع شأنه بين الناس، وقيامه بأعمال خارقة تلفت إليه انتباه الجميع،...

ينظر إلى نفسه على أن له قدرًا عند الله بما يقوم به من أعمال.

ينتظر الكرامات، ويستعظم أن ينزل به بلاء.

يلازمه الشعور بالأمان.

يخاف على الناس أكثر مما يخاف على نفسه.

يظن أنه محسن، وهم مسيئون، وأنه ناجٍ وهم هالكون، وأنه عالم وهم جاهلون، وأنه عاقل وهم حمقى، وأنه من طلاب الآخرة وهم من طلاب الدنيا.

التعالي على الناس

وعندما تتعدد الجزئيات التي تتضخم داخل الإنسان فإن نفسه تتعاظم وتكبر شيئًا فشيئًا؛ ومِن ثَمَّ يزداد إعجابه بها وتقديسه لها، وينعكس ذلك على تعاملاته مع الآخرين؛ فتراه يكثر من نصح غيره ونقده، ولا يقبل نصيحة من أحد.

يحب أن يخدمه الناس ويكره أن يخدم أحدًا.

لا يمل من الحديث عن نفسه، وإنجازاته، وماضيه، ولو كرر ذلك مئات المرات،

وفي الوقت نفسه تراه يقاطع غيره ولا يسمح له بالحديث عن نفسه كما يفعل هو.

لا يعطي الآخرين حقوقهم من التقدير، ويضيق صدره إذا ما أُثنِيَ على أحد غيره.

يفرح بسماع عيوب الناس، وبخاصة إذا ما كانوا أقرانه.

يبتعد عن كل ما ينقصه أو يظهره بمظهر الجاهل أو المحتاج إلى المعرفة.

إذا سُئل عن أمر من الأمور تراه يجيب دون دراية لينفي عن نفسه صفة الجهل (وإن رد عليه شيء من قوله غضب، وإن حاجّ أو ناظر أنِف أن يُرَد عليه، وإن وُعِظ استنكف من قبول النصح، وإن علَّم لم يرفق بالمتعلمين، وانتهرهم، وامتن عليهم، واستخدمهم)(١).

إن هذه المظاهر باختصار تعكس معنى حديث رسول الله ﷺ: «**الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»(٢).

أمثلة من الواقع

ومن الأمثلة العملية التي تكشف تضخم الذات ووجود الصنم:

- **إبليس**: عندما كبرت عنده ذاته وتضخمت حدا به ذلك إلى عدم الانصياع لأمر الله بالسجود لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، مُعللًا ذلك بقوله: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف: ١٢].
- **صاحب الجنتين**: الذي أعجب بما لديه من أموال وجنات، واغتر بها ولم يقبل

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٥٣٢، ٥٣٣).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان. باب تحريم الكبر وبيانه (١/ ٩٣ برقم: ٩١) وأبو داود: كتاب الأدب، باب ما جاء في الكبر (برقم: ٤٠٩١) والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الكبر (برقم: ١٩٩٩) وابن ماجة: كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع (برقم: ٤١٧٣).

نصح صاحبه، بل كبرت عنده نفسه، حتى ظن أن سيكون له عند الله مكانة في الآخرة خيرًا مما هو عليه في الدنيا: ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٦].

• ومن الأمثلة التي تبين ما يمكن أن يفعله الإعجاب بالنفس والكبر في السلوك ما رواه الماوردي في أدب الدنيا والدين عن عمر بن حفص قال: قيل للحجاج: كيف وجدت منزلك بالعراق؟ قال: خير منزل، لو كان الله بلغني قتل أربعة لتقربت إليه بدمائهم، قيل: ومن هم؟

قال: مقاتل بن مسمع؛ وُلِّيَ سجستان، فأتاه الناس، فأعطاهم الأموال، فلما عزل دخل مسجد البصرة، فبسط الناس له أرديتهم، فمشى عليها، وقال لرجل يماشيه: لمثل هذا فليعمل العاملون.

وعبد الله بن زياد بن ظبيان التيمي؛ خوف أهل البصرة أمرٌ، فخطب خطبة أوجز فيها، فنادى الناس من أعراض المسجد: أكثر الله فينا مثلك! فقال: لقد كلفتم الله شططًا.

ومعبد بن زرارة؛ كان ذات يوم جالسًا في طريق، فمرت به امرأة، فقالت له: يا عبد الله، كيف الطريق إلى موضع كذا؟ فقال: يا هُناه، مثلي يكون من عبيد الله!

وأبو شمَّال الأسدي؛ أضل راحلته، فالتمسها الناس، فلم يجدوها، فقال: والله إن لم يرد إلى راحلتي لا صليت له صلاة أبدًا، فالتمسها الناس فوجدوها، فقالوا: قد رد الله راحلتك فصل، فقال: إن يميني يمين مُصِر[1].

(١) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٣٢).

القصيمي

ومــن الأمثلة كذلك: عبد الله القصيمي، نال من العلم كثيرًا، وبرع فيه وخاصة علم العقيدة، جرد قلمه في الرد على مخالفي أهل السنة، وله كتاب عن الوثنية قيل: إنه أروع ما كتب في بابــه، قال عنه معاصروه: لم نره قط إلا وقد تأبَّط كتابًا... إلخ، لكن هذا الرجل كانت فيه دسيسـة سـوء وآفة مقيتة لم يسـتأصلها، الأمر الذي أدى إلى انتكاسـه وضلاله وكفره بعد إيمانه، بل ألَّف في أهل التوحيد كتابًا يسـتهزئ فيه بهم وبدينهم، تلكم الآفة هي: العُجب والغرور، وقد شهد على هذه الآفة شعره، ومنه:

لوْ أنصفوا كنتُ المقدمَ في الأمرِ ... ولمْ يطلبوا غيري لدى الحادث النُّكر
ولمْ يرغبـوا إلا إلـيَّ إذا ابتغوا ... رشـادًا وحزمًا يعزبان عن الفكرِ
ولم يذكروا غيري متى ذكرَ الذكا ... ولم يبصروا غيري لدى غيبةِ البدرِ
فما أنا إلا الشمسُ في غيرِ برجها ... وما أنا إلا الدرُّ فـي لججِ البحرِ
بلغـت بقولي ما يـرام من العلا ... فما ضرني نقدُ الصوارم والسمرِ
أسفتُ على علمي المضاعِ ومنطقي ... وقد أدركا لـو أدركا غايةَ الفخرِ

وقال أيضًا:

حاشـا لهم أن يعدلوا بي واحدًا ... من بعدِ ما وضحـتْ لهمْ أنبائي
وأعيذهـمْ منْ أن يحيـلَ أديبُهم ... وأديـبُ كلِ الناسِ فـي النعماءِ
عابوا علـيّ تحدثـي وتمدحي ... بأصالتـي وشـجاعتي وذكائي
إن لم يبـحْ مدحُ الفتـى أخلاقَه ... بيضًـا فـأى تمـدحٍ وثنـاءِ

نسأل الله تعالى العافية والعصمة من هذا الداء الوبيل[١].

---

(١) أخبار المنتكسين.

انتبه:

قـد لا يصـل أغلبنـا -بفضـل الله- إلى هـذه الدرجـة مـن الإعجـاب بالنفس، ومـع ذلـك فهذا المـرض درجات، ولنحـذر من ترك أنفسـنا تتضخـم داخلنا، يقول رسـول الله ﷺ: «**لَا يَـزَالُ الرَّجُـلُ يَذْهَـبُ بِنَفْسِـهِ حَتَّى يُكْتَـبَ فِي الْجَبَّارِيـنَ فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ**»(١).

• • •

(١) رواه الترمذي (برقم: ٢٠٠٠) في البر والصلة، باب ما جاء في الكبر.

الفصل الرابع

خطورة الإعجاب بالنفس

- الإعجاب بالنفس شرك بالله.
- يحبط العمل ويفسده.
- يؤدي إلى غضب الله ومقته.
- يؤدي إلى الخذلان وحرمان التوفيق والتعرض للفتن.
- يؤدي إلى اتباع الهوى ونسيان الذنوب.
- قد يؤدي إلى سوء الخاتمة والحساب الدقيق يوم القيامة.
- يؤدي إلى نفور الناس من صاحبه.
- يؤدي إلى الخسران المبين.

خطورة الإعجاب بالنفس

لداء الإعجاب بالنفس تأثيرات ســلبية، ومخاطر عظيمة على كل من يصاب به، ويكفي في بيان خطورته أن رســول الله ﷺ أعده من المهلكات.. قال رسول الله ﷺ: «**الْمُهْلِكَاتُ ثَلَاثٌ: إِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ، وَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ**»(١).

أما أسبابه في هلاك الشخص الذي يستسلم له فعديدة، منها:

الإعجاب بالنفس شرك بالله

فعندما يُعجب المرء بنفســه -ولو في جزئية صغيرة- فإنه سيراها بعين التعظيم، فيثــق بها ويتكل عليها في جلب النفع له في هــذه الجزئية، وهذا لون خطير من ألوان الشرك.

يقول ابــن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الرياء من باب الإشراك بالخلــق، والعُجب من باب الإشرك بالنفس(٢).

ويؤكد د. محمد سعيد البوطي على هذا المعنى فيقول:

ليس الشرك محصورًا في معناه السطحي المتمثل في عبادة الأصنام وما سوى الله،

---

(١) رواه البزار في البحر الزخار (٨/ ٢٩٥ برقم: ٣٣٦٦) وابن عدي في الكامل (٥/ ١٨٨٢)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٣١٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠ / ٢٧٧).

أو المتمثل في أن يتجه أحدنا بالدعاء إلى غير الله، بل إن له معنى خفيًّا يتسرب بسبب خفائه إلى أفئدة ونفوس كثير من المسلمين دون معرفة له وشعور به، وذلك هو مصدر خطورته؛ إذ لا يصادف عملًا صالحًا، أو عبادة من العبادات أو نوعًا من أنواع الجهاد، إلا أحبطه وأفقده قيمته، وحوله من طاعة مبرورة إلى معصية وشرك، وصدق الله القائل: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

هذا الشرك الخفي هو أن يرى الإنسان من ذاته شيئًا هو مبعث القوة إن سار وتحرك، ومبعث الدراية والفهم إن علم وتعلم، أو مبعث الملك والغنى إن شبع وتنعم، أو مبعث الغلبة والقهر إن قدَرَ وتحكم.

فهذه كلها أوهام تناقض الحقيقة التي ركب منها الإنسان؛ ومِن ثَمّ فهي تناقض التوحيد، وتناقض حال من يزعم أنه موحد من حملة هذه الأوهام(١).

يحبط العمل ويفسده

يقول النووي: اعلم أن الإخلاص قد يعرض له آفة العُجب، فمن أعجب بعمله حبط عمله، وكذلك من استكبر حبط عمله(٢): ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فإن قلت: ولماذا يحبط العُجب العمل الصالح؟!

كان الجواب: لأن الله عَزَّوَجَلَّ لا يقبل إلا ما كان خالصًا لوجهه، واستُعين به سبحانه على أدائه، والمُعجب يستعين بنفسه أكثر مما يستعين بالله؛ لذلك قال ابن تيمية:

(١) شرح الحكم العطائية للبوطي (٢/ ٢٩٢، ٢٩٣).
(٢) شرح الأربعين النووية للنووي (ص: ٧) - المكتب الإسلامي، بيروت.

المُعجب بنفسه لا يحقق إياك نستعين، كما أن المرائي لا يحقق إياك نعبد[١].

فالعُجب يحبط العمل الصالح الذي قارنه لأنه ينافي الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ

كان المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: يا معشر الحواريين كم من سراج قد أطفأته الريح، وكم من عابد قد أفسده العُجب[٢].

فيا بؤس المُعجب بنفسه، وهو يرى عمله الذي بذل فيه جهده قد أُحبط.. قال النبي ﷺ: «**قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**»[٣].

ويطلق يحيى بن معاذ تحذيرًا شديدًا فيقول: إياكم والعُجب، فإن العُجب مهلكة لأهله، وإن العُجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب[٤].

فالذي يبيت نائمًا ويصبح نادمًا، خير ممن يبيت قائمًا ويُصبح مُعجبًا.

قيل لابن المبارك: ما الذنب الذي لا يُغفر؟ قال: العُجب[٥].

وكان الصالحون يرون: أنه يموت مذنبًا نادمًا أحب إليهم من أن يموت مُعجبًا.

جاء في الحديث: «**كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ؛ فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ**

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٧٧).

(٢) منهاج العابدين لأبي حامد الغزالي (ص: ١٩٧) - مكتبة الجندي - القاهرة.

(٣) رواه مسلم: (٤/ ٢٠٢٣ برقم: ٢٦٢١)كتاب البر والصلة، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله.

(٤) شعب الإيمان للبيهقي (٩/ ٣٩٥ برقم: ٦٨٦١).

(٥) شعب الإيمان للبيهقي (٩/ ٣٩٦ برقم: ٦٨٦٢).

فَيَقُــولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِــرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللهُ الْجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدُ: أَكُنْتَ بِي عَالِــمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِــي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ» قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته[(١)].

يؤدي إلى غضب الله ومقته

قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ، وَاخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ**»[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ: «**النَّادِمُ يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ، وَالْمُعْجَبُ يَنْتَظِرُ الْمَقْتَ**»[(٣)].

فإن قلت: لماذا يتعرض الـمُعجب بنفسه لمقت الله؟!

يتعرض لذلك لأنه جاحد لفضل ربه العظيم عليه..

تخيل أنك تســاعد شــخصًا على قضاء حاجة له، فإذا به يذهب بعد قضائها إلى آخر ليحمده.. ماذا ستكون مشاعرك نحوه؟! وماذا لو تكرر ذلك مرات ومرات؟!

إنــه لمن الطبيعي أن يفرح العبد بفضل ربه، على كل نعمة يســديها إليه، وعمل

(١) رواه أبو داود (٤/ ٢٧٥ برقم: ٤٩٠١) في كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي، وابن حبان في صحيحه (١٣/ ٢١).

(٢) رواه أحمد: (١٠/ ٢٠٠ برقم: ٥٩٩٥)، وقال الهيثمي (١/ ٩٨): رجاله رجال الصحيح، وقال البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٧/ ٣٧٣): رَوَاهُ مُسَدَّدٌ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ، وَالطَّبَرَانِيُّ بسند الصحيح.

(٣) رواه الطبراني في الصغير (١/ ٣١٤ برقم: ٥٢٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٣٩٧ برقم: ٦٨٦٧).

صالح يوفقه إلى فعله.

فإن لم يفعل ذلك وجحد نعم ربه عليه، بل فرح بنفسه وحمدها على ما لم تفعله، فماذا سيكون وضعه عند ربه؟! إنه المقت والعياذ بالله.

لذلك قال ابن الحاج في المدخل: من كان في نفسه شيئ فهو عند الله لا شيء[١].

وقال كعب لرجل رآه يتتبع الأحاديث:

اتقِ الله وارضَ بالدون من المجالس، ولا تؤذ أحدًا، فإنه لو ملأ علمك ما بين السماء والأرض مع العُجب ما زادك الله به إلا سفالًا ونقصًا[٢].

وقيل للسيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: متى يكون الرجل مسيئًا؟ قالت: إذا ظن أنه محسن[٣].

يؤدي إلى الخذلان وحرمان التوفيق والتعرض للفتن

انظر إلى ما حدث للمسلمين في غزوة حنين عندما اتكلوا على قوتهم وأعجبوا بها؛ حيث كان الجيش الإسلامي كبيرًا، لدرجة أن العُجب قد دخل إلى بعض النفوس، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة: ٢٥].

يقول المباركفوري: وبينما هم ينحدرون في وادي حُنين، وهم لا يدرون بوجود كمائن العدو في مضايق هذا الوادي، إذا بكتائب العدو قد شدت عليهم شدة رجل

(١) المدخل لابن الحاج (٢/ ٢٥) دار الكتب العلمية، بيروت.
(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ٥٦٧ برقم: ٩٥٩).
(٣) العجب لعمر بن موسى (ص: ٣١).

واحد، فانشــمر المســلمون راجعين، لا يلوي أحد على أحد، وكانت هزيمة منكرة، حتى قال أبو ســفيان بن حرب وهو حديث عهد بالإسلام: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، أي البحر الأحمر. وانحاز رسول الله ﷺ جهة اليمين وهو يقول: «**هَلُمُّوا إِلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ، أَنَا رَسُولُ اللهِ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ**»، ولم يبقَ معه في موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين وبعض أهل بيته(١).

ولقــد بعث أبو بكر لخالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رســالة بعد انتصاراته في العراق: فليهنئك أبا ســليمان النيــة والحظوة فأتم يتم الله لــك. ولا يدخلنك عُجب فتخسر وتُخذل، وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المَنّ وهو ولي الجزاء(٢).

وقال الحسن: ليس بين العبد وبين ألا يكون فيه خير إلا أن يرى أن فيه خيرًا.

يؤدي إلى اتباع الهوى ونسيان الذنوب

فالـمُعجب ينظر لنفسه بعين الرضا، ولا ينظر إليها بعين الاتهام والحذر، فإذا ما رضي الإنســان عن نفسه انقاد لما تحبه، وتدعو إليه؛ لذلك يقول ابن عطاء: أصل كل معصية وغفلة وشــهوة: الرضا بالنفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة: عدم الرضا منك عنها، ولأن تصحب جاهلًا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالــمًا يرضى عن نفســه. فأي علم لعالم يرضى عن نفسه؟! وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟!(٣)

---

(١) الرحيق المختوم للمباركفوري (ص: ٤٦٧، ٤٦٨) بتصرف يسير.

(٢) الأخفياء لوليد بن سعيد باحكم (١٢٩) دار الأندلس الخضراء - جدة نقلًا عن تاريخ الطبرى (٣/ ٣٨٥).

(٣) الحكم العطائية.

ومن خطورة العُجب أنه يوقع العبد فيما حذر منه يوســف بن الحســين الجنيد عندما قال له: لا أذاقك الله طعم نفسك فإن ذقتها لا تفلح. وفي رواية: فإنك إن ذقتها لم تذق بعدها خيرًا أبدًا(١).

وفي الأثــر: قال الله عَزَّوَجَلَّ لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ: يــاداود إني قد آليت على نفسي أن لا أثيب عبدًا من عبادي إلا عبدًا قد علمت من طلبه وإرادته وإلقاء كنفه بين يدي أنه لا غنى له عني، وأنه لا يطمئن إلى نفسه بنظرها وفعالها إلا وكلته إليها...أضِف الأشياء إليَّ؛ فإني أنا مننت بها عليك(٢).

قـد يـؤدي إلى سـوء الخاتمـة والتعـرض للحسـاب الدقيـق يـوم القيامـة

قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ لِوَالِدَيْهِ، وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ، وَلَا مَنَّانٌ...**»(٣).

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من قال: إنه عالم فهو جاهل، ومن قال: إنه في الجنة فهو في النار.

وقــال قتادة: من أُعطي مالًا، أو جمالًا، وثيابًــا وعلمًا ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالًا يوم القيامة(٤).

وفي الأثر: أوحــى الله إلى داود: يا داود، أنذر عبــادي الصديقين، فلا يعجبن بأنفســهم ولا يتكلنَّ على أعمالهم. فإنه ليس أحد من عبادي أنصبه للحساب، وأقيم

(١) سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٤٩).
(٢) المدخل لابن الحاج.
(٣) رواه عبد الرزاق (٧/ ٤٥٤ برقم: ١٣٨٥٩)، وأحمد (٢/ ٢٠٣ برقم: ٦٨٩٢)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (٦/ ٢٥٧).
(٤) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا (برقم: ٩٠).

عليه عدلي إلا عذبته من غير أن أظلمه. وبشر عبادي الخطَّائين: أنه لا يتعاظمني ذنب أن أغفره، وأتجاوز عنه[١].

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص: ٨٣].

يؤدي إلى نفور الناس من صاحبه

فالناس لا تحب من يُشعرها بنقصها، ويحدثها من علٍ.

والناس لا تحب من يُكثر الافتخار بنفسه والمباهاة بإنجازاته.

لذلك قد ترى الـمُعجب بنفسه كثير المعارف لكنه قليل الأصحاب والأصدقاء.

يقول مصطفى السباعي: نصف الذكاء مع التواضع أحب إلى قلوب الناس وأنفع للمجتمع من ذكاءٍ كاملٍ مع الغرور[٢].

يؤدي إلى الكبر وعدم القدرة على قبول الحق؛ ومن ثَمَّ الخسران المبين

إعجاب المرء بنفسه ورؤيتها بعين التعظيم يؤدي إلى رؤية الآخرين بعين النقص، وشيئًا فشيئًا ينمو هذا التصور داخله حتى يصير به متكبرًا، ويكتب في الجبارين كما قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ فِي الْجَبَّارِينَ، فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ**»[٣].

فالكبر إذن ثمرة طبيعية من ثمرات العُجب، أما خطورته فتفوقه بكثير، يقول

(١) الزهد للإمام أحمد (برقم: ٣٧٦).

(٢) هكذا علمتني الحياة لمصطفى السباعي.

(٣) رواه الترمذي (برقم: ٢٠٠٠) في البر والصلة باب ما جاء في الكبر.

رسول الله ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»[(١)].

ويتحدث أبو حامد الغزالي عن خطورة الكبر فيقول: وإنما صار الكبر حجابًا دون الجنة؛ لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلقان تلك الأبواب كلها

لأنه لا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز.

ولا يقدر على أن يدوم على الصدق وفيه العز.

ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز.

ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز.

ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز.

ولا يسلم من الازدراء بالناس واغتيابهم وفيه العز.

فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه، وما من خلق محمود لا وهو عاجز عنه خوفًا من أن يفوته عزه[(٢)].

وفي النهاية: يلخص الدبوسي في كتابه (الأمد الأقصى) خطورة العُجب وما يسببه من هلاك وخذلان فيقول:

دمار العُجب يشمل الدارين، فكان عملًا بلا جدوى، وما هو إلا عمل الحمقى.

(١) رواه مسلم (برقم: ٩١)، وأبو داود (برقم: ٤٠٩١) في كتاب الأدب، باب ما جاء في الكبر، والترمذي (برقم: ١٩٩٩) في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الكبر، وابن ماجة (برقم: ٤١٧٣) كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع.

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٤٤، ٣٤٥).

ولا نرى مُعجبًا إلا ممقوتًا بين الناس، فكيف حاله مع ربه وهو مشرك بعجبه(١).

قال رسول الله ﷺ: «**لَوْ لَمْ تَكُونُوا تُذْنِبُونَ لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ: الْعُجْبَ**»(٢).

وقال ضرار بن مرة: يقول إبليس: إذا استمكنت من ابن آدم ثلاث أصبت منه حاجتي:

إذا نسي ذنوبه..

واستكثر عمله..

وأُعجب برأيه.

وخلاصة القول؛ ما يقول الماوردي: إن العُجب سيئة تحبط كل حسنة، ومذمة تهدم كل فضيلة، مع ما يثيره من حَنق، ويَكسِبه من حقد(٣).

• • •

(١) الأمد الأقصى (ص: ١٥٦) دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) رواه البزار (١٣/ ٣٢٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٣٩٩)، وقال الهيثمي (١٠/ ٤٧٥): إسناده جيد، وكذا قال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٠)، وحسنه ابن القطان في بيان الوهم (٤/ ٦٣٦).

(٣) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٣٢).

الباب الثاني

كيف نزيل أصنامنا؟

- تمهيد: مدى حاجتنا لإزالة أصنامنا.
- الفصل الأول: طلب العلاج من الله عَزَّوَجَلَّ.
- الفصل الثاني: معرفة الله عَزَّوَجَلَّ ودورها في علاج العُجب.
- الفصل الثالث: معرفة حقيقة الإنسان وطبيعة النفس.
- الفصل الرابع: تكلف التواضع.
- الفصل الخامس: إغلاق الأبواب أمام النفس.
- الفصل السادس: العلاج بالقرآن.
- الفصل السابع: التعاهد والتربية ودورهما في علاج العُجب.
- الفصل الثامن: شبهات يجب أن تُزال.

تمهيد

مدى حاجتنا لإزالة أصنامنا

مما سبق بيانه في الصفحات السابقة يتضح لنا أنه من غير المستبعد أن يكون هناك تضخم في أنفسنا ولو في جزء يسير منها، وهذا يستدعي العمل على سرعة إزالته، فوجوده يعرضنا لمخاطر عظيمة ومهلكة، ولا خيار أمامنا إلا البدء الفوري في تناول الدواء الذي يعيد أنفسنا إلى حجمها الطبيعي، إذا ما أردنا أن نقترب من دائرة الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ؛ ومن ثم نيل توفيقه ومعيته في الدنيا ورضاه وجنته في الآخرة.

من قوانين النصر

ومن دواعي حاجتنا كذلك لإزالة أصنامنا: تلقي نصر الله الذي طال انتظاره، فقد أخبرنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن النصر من عنده وحده: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠].

وحدد -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- شروطًا وأسبابًا من شأنها إذا ما اكتملت أن تستدعي نصره، ومن أهم هذه الشروط تغيير ما بأنفسنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ومنهـا: نصرتـه علـى أنفسـنا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧ ﴾ [محمد: ٧].

ومنها كذلك: عدم الشرك بالله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ ﴾

[النور: ٥٥].

مـن هنا يتضح لنا أن حاجتنا لإزالة أي صورة من صور الكبر وتضخم الذات، حاجة ماسة وضرورية، وينبغي أن تكون لها الأولوية في اهتماماتنا.

ما المقصود بإزالة أصنامنا؟

المقصود بإزالة الأصنام داخلنا:

أن تكون أنفسنا في أعيننا صغيرة مهما كان وضعنا بين الناس.

وأن نستصغر ما نقدمه من أعمال مهما كان حجمها، بل نعمل العمل الصالح ونستغفر بعده. وأن نكون على حذر من أنفسنا، ونيأس من أن يأتينا فلاح من قِبَلها.

وأن يعظم قـدر الله عَزَّوَجَلَّ عندنا، وأن نربط كل نعمة وتوفيق به سبحانه، ولا ننسب أي فضل لأنفسنا.

ألَّا نظن أن عندنا شيئًا نَفْضُل الناس به، بل نراهم جميعًا أفضل منا.

أن نعمل العمـل الصالح ولا نعجب به، أن نُحـدِّث الآخرين وندعوهم فلا تنتفخ أنفسنا وتشمخ... فكيف نصل إلى ذلك كله؟!

وسائل مقترحة

أما الوسائل التي من شأنها أن تحقق هذه الأهداف فقد دلنا عليها الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه، وبينها رسوله الكريم ﷺ في سنته، ومارسها العلماء والمربون في صدر هذه الأمة، وهي كثيرة يأتي على رأسها:

- ■ طلب العلاج من الله عَزَّوَجَلَّ.
- ■ معرفة الله عَزَّوَجَلَّ.
- ■ معرفة حقيقة الإنسان وطبيعة النفس.
- ■ تكلف التواضع.
- ■ إغلاق الأبواب أمام النفس.
- ■ العلاج بالقرآن.
- ■ التعاهد والتربية.
- ■ شبهات يجب أن تزال.

• • •

الفصل الأول

طلب العلاج من اللّه عَزَّوَجَلَّ

- صعوبة علاج العُجب.
- الإمداد بحسب الاستعداد.
- الدواء المر النافع.
- الحرمان من القيام بالطاعة.
- حسن الفهم عن الله.
- التعرف على الأكفاء.
- الشعور بعدم التميز عند الله.
- إخمال الذكر.
- استصغار العمل ونسيانه.
- تأخر الإمداد.
- مواقف عملية للتربية الربانية مع الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

طلب العلاج من الله عَزَّوَجَلَّ

صعوبة علاج العُجب

بـــادئ ذي بدء علينا أن نعلـــم أن مرض الإعجاب بالنفـــس، وتضخم الذات من الأمراض التي يصعب علاجها، فنفس كل منا محبوبة لديه، وما تدعو إليه محبوب كذلك، وكما قال يوسف بن الحسين للجنيد: لا أذاقك الله طعم نفسك، فإن ذقتها لا تفلح.

وقال ابن عقيل: متى تخربق الإنسان به، قل أن يخرج من رأسه[١] -يعني العُجب.

ويؤكد الدبوسي على ذلك فيقـــول: والنجاة من العُجب عزيزة، فالنفس مدعية للملك والإمرة والإحسان والقدرة[٢].

ومـــع هذا كله فلا كبير على الله عَزَّوَجَلَّ، وما أنزل ســـبحانه من داء إلا وأنزل معه دواءه.

المهم أن نُدرك خطورة هذا الداء، ونعترف بتلبسنا به -ولو بقدر يسير- ونستشعر حاجتنا الماسة للتخلص منه. قال تعالى: ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ ﴾ [النساء: ٣٥].

---

(١) الفنون لابن عقيل نقلًا عن العجب لعمر بن موسى الحافظ (ص: ٢٤) وتخربق الشيء: اتصل بعضه ببعض، والمراد هنا: ارتداه فاتصل بجسده كهيئة الثوب.

(٢) الأمد الأقصى (ص: ١٥٦).

فالله -عَزَّوَجَلَّ- هو الشـــافي لكل ما يمكن تصوره من أمراض، هذا الشفاء قريب ممـــن يحرص عليه ويطلبه، كما في الحديـــث القدسي: «**يَا عِبَادِي كُلُّكُـمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**»[1].

قال أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لما أهبط الله آدم إلى الأرض، قال: يا آدم أحبني، وحببني إلى خلقي، ولا تستطيع ذلك إلا بي، ولكن إذا رأيتك حريصًا على ذلك أعنتك عليه[2].

فإن كان الأمر كذلك، فإن أول وأهم وســيلة للتخلــص من هذا الداء: طلب العلاج من الله عَزَّوَجَلَّ، وسؤاله أن يتولى أمرنا، ويشفينا مما أصابنا، ويمحو -بقدرته- أي أثر لتضخم الذات، وأن يجعل أنفسنا في أعيننا صغيرة.

الإمداد بحسب الاستعداد

علينا أن نشتكي إليه -سبحانه- من حالنا، وضعفنا، وخوفنا من أنفسنا، ونلح في ذلك مرات ومرات، ونتقصد أوقات الإجابة، وندعوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بتذلل وانكسار وخشوع.

ولنعلم جميعًا أن الإمداد بحسب الاستعداد، فعلى قدر حجم إنائك الذي تتقدم به، ســيكون المدد والعطاء من الله عَزَّوَجَلَّ، فهو ســبحانه كريم لا يرد سائلًا عن بابه، ولكن نحن الذين نظلم أنفسنا ونبخل عليها بعدم سؤاله:

عطايانـــا ســـحائب مرســـلات ولكـــن مـــا وجدنـــا الســـائلين
وكل طريقنـــا نـــور ونـــور ولكن مـــا رأينـــا الســـالكينا[3]

(١) رواه مسلم (٤/ ١٩٩٤برقم: ٢٥٧٧).

(٢) ذكره ابن رجب في استنشاق نسيم الأنس (ص: ١٢٧) - مكتبة الخاني الرياض.

(٣) من قصيدة جواب شكوى لمحمد إقبال «كتاب حديث الروح» (ص: ٨٢) - دار القلم - دمشق.

فعلى قدر صدقنا وإلحاحنا في طلب العلاج من الله عَزَّوَجَلَّ ستكون الاستجابة منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

الدواء المُر النافع

من أهم صور العلاج الرباني لتخليص العبد من داء الإعجاب بالنفس ورؤيتها بعين التعظيم: أن يُخلِّي بينه وبين الذنب، فيتركه دون عصمة منه؛ يتركه لضعفه ونفسه الأمارة بالسوء، فيقع في الذنب فتهتز ثقته بنفسه ويعرف حقيقته.

قال جعفر بن محمد: علم الله عَزَّوَجَلَّ أن الذنب خير للمؤمن من العُجب، ولولا ذلك ما ابتلي مؤمن بذنب.

ويشرح ابن القيم هذا المعنى فيقول: إن العبد يفعل الحسنة فلا يزال يمن بها على ربه، ويتكبر بها، ويرى نفسه، ويعجب بها، ويستطيل بها، ويقول: فعلت، وفعلت، فيورثه ذلك من العُجب، والكبر، والفخر، والاستطالة، ما يكون سبب هلاكه[(١)].

فإذا أراد الله بهذا العبد خيرًا ألقاه في ذنب يكسره به، ويعرفه قدره، ويكفي به عباده شره، وينكس به رأسه، ويستخرج منه داء العُجب والكبر والمنة عليه وعلى عباده؛ فيكون هذا الذنب أنفع من طاعات كثيرة، ويكون بمنزلة شرب الدواء ليستخرج به الداء العضال[(٢)].

---

(١) الوابل الصيب لابن القيم (ص: ٨) - مكتبة المؤيد - الرياض.

(٢) تهذيب مدارج السالكين (ص: ١٧٠) - وزارة العدل - الإمارات.

من هنـــا يتضح لنا قول ابن عطاء: رب معصية أورثت ذلًا وانكســـارًا خير من طاعة أورثت عجبًا واستكبارًا[١].

ولقد سُـــئل ســـعيد بن جبير: من أعبد الناس؟ قال: «رجل اجترح من الذنوب وكلما ذكر ذنبه احتقر نفسه»[٢].

وقال بعض الســـلف: أنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين؛ لأن زجل المسبحين ربما شابه الافتخار، وأنين المذنبين يزينه الانكسار والافتقار[٣].

من هنا يتضح لنا أن من صور تربية الله للعبد: أن يتركه، ولا يعصمه من الوقوع في الذنب، فينكس رأسه، ويهتز صنمه، وهذا أحب إلى الله من فعل كثير من الطاعات، فإنَّ دوام الطاعات وترك المنكرات قد توجِب لصاحبها العُجب، قال الحسن: لو أن ابن آدم كلما قال أصاب، وكلما عمل أحسن، أوشك أن يُجَن من العُجب[٤].

قال بعضهم: ذنب أفتقر به إليه أحب إليَّ من طاعة أدل بها عليه[٥].

فالمقصود من زلل المؤمن ندمه، ومن تفريطه أســـفه، ومـــن اعوجاجه تقويمه، ومن تأخره تقديمه.

انتبـه: هـذا العـلاج الربـاني ليـس معنـاه أن يسـتمرئ العبـد الذنـب، ويفـرح بـه ولا يجـد غضاضـة في فعلـه، فالذنـب -كـما نعلـم- لـه أضراره الخطـيرة عـلى فاعله

(١) الحكم العطائية، شرح وتحليل: العلامة محمد سعيد رمضان البوطي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- (٢/ ٤٣٨) شرح الحكمة الرابعة والتسعين.

(٢) حلية الأولياء (٤ / ٢٧٩).

(٣) لطائف المعارف لابن رجب (ص: ٤٥) طبع المكتب الإسلامي، تحقيق: طارق بن عوض الله.

(٤) لطائف المعارف (ص: ٤٥)، ربيع الأبرار للزمخشري، تحقيق الدكتور: سليم النعيمي (٣/ ٤٢٠).

(٥) لطائف المعارف (ص: ٤٥).

من حرمان للتوفيق والرزق، ومن ضيق في الصدر، وتعسير في الأمور: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى: ٣٠].

من هنا يتضح لنا أن هذا الدواء المر لا ينبغي للعبد أن يسعى إليه طمعًا في ثماره، فالله عَزَّوَجَلَّ أعلم بعباده، وأدرى بمن يصلحه هذا الدواء من غيره.

الحرمان من القيام بالطاعة

ومن صور التربية الربانية الفريدة: أن يمنع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن العبد بابًا من أبواب الطاعة، صيانة وحفظًا له من تسلط نفسه وإلحاحها عليه ليحمدها ويرضى عنها.

أخرج أبو نعيم في حلية الأولياء عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: يقول الله عَزَّوَجَلَّ: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الْغِنَى وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عَبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الصِّحَّةُ، وَلَوْ أَسْقَمْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ حَالَهُ إِلَّا السُّقْمُ وَلَوْ أَصْحَحْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ يَطْلُبُ بَابًا مِنَ الْعِبَادَةِ فَأَكُفُّهُ عَنْهُ كَيْلَا يَدْخُلَهُ الْعُجْبُ، إِنِّي أُدَبِّرُ أَمْرَ عِبَادِي بِعِلْمِي بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ، إِنِّي عَلِيمٌ خَبِيرٌ**»[1].

سأل رجل سفيان الثوري وقال له: ما لي أطلب الشيء من الله تعالى فيمنعني؟! قال: منع الله إياك عطاء، لأنه لم يمنعك من بخل ولا عدم ولا افتقار ولا احتياج، وإنما يمنعك رحمة بك.

فإن كان الأمر كذلك، فأيهما أفضل للعبد: أن يقيم الليل مثلًا ويصبح مُعجبًا،

(١) ابن أبي الدنيا في الأولياء، الحديث الأول (ص: ٢٧) طبع مكتبة القرآن، والبغوي في شرح السنة (٥/ ٢١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٧/ ٩٦)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٤٤) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ٣١٨).

مفتخرًا بعبادته، أم ينام ويصبح نادمًا على تقصيره؟!

يجيب عن هذا السـؤال ابن القيم فيقول: وإنك إن تبت نائمًا وتصبح نادمًا، خير من أن تبيت قائمًا وتصبحَ مُعجبًا، فإن الـمُعجب لا يصعد له عمل، وإنك إن تضحك وأنت معترف، خير من أن تبكي وأنت مـدل. وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين المدلين(١).

وفي هذا المعنى يقول مورق العجلي: خير من العُجب بالطاعة ألا تأتي بالطاعة(٢).

حسن الفهم عن الله

ومن صـور التربية الربانية: حسـن الفهم عن الله فيما يرسـله لعبده من آيات ورسائل.

قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ١٦٨﴾ [الأعراف: ١٦٨].

فالعبد يتعرض في يومـه لأحداث كثيرة، ويتقلب بين المنـع والعطاء. وما من حـدث يحدث له إلا ووراءه حكمة إلهية محورها تعريفه بربه، وتعريفة بنفسـه. ومن خلال التحليل الصحيح لهذه الأحداث يصل العبد لحقيقة علاقته بربه، وأنه لا غنى له عنه طرفة عين، فيردد من قلبه ذكر: لا حول ولا قوة إلا بالله(٣).

يقول ابن عطاء: ربما أعطـاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك. متى فتح لك باب

(١) تهذيب مدارج السالكين (ص: ١٢٠).

(٢) البيان والتبيين للجاحظ (٢ / ١٩٨) - دار الجيل - بيروت.

(٣) سيتم -بعون الله ومشيئته- بيان هذا الأمر بشيء من التفصيل في الفصل الثالث: معرفة حقيقة الإنسان.

الفهم في المنع عاد المنع عين العطاء[١].

ويقول أيضًا: ربما أعطاك فأشهدك بره، وربما منعك فأشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرف إليك، ومقبل بجميل فضله عليك[٢].

التعرف على الأكفاء

ومن صور التربية الربانية: أن يضع -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- في طريق العبد من يشعره بنقصه وضآلة حجمه، وأن هناك من هم أعلم وأكفأ منه، ولنا في قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والخضر أبلغ مثال على ذلك.

ويؤكد على هذا المعنى الماوردي بتجربة مر بها، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومما أنذرك به من حالي، أنني صنعت في البيوع كتابًا، جمعت به ما استطعت من كتب الناس، وأجهدت فيه نفسي، وكددت فيه خاطري، حتى تهذب واستكمل، وكدت أعجب به، وتصورت أنني أشد الناس اضطلاعًا بعلمه، ثم حضرني وأنا في مجلسي أعرابيان، فسألا عن بيع عقداه في البادية، على شروط تضمنت أربع مسائل، لم أعرف لواحدة منهن جوابًا، فأطرقت مفكرًا، وبحالي وحالهما معتبرًا. فقالا: ما عندك فيما سألناك من جواب وأنت زعيم هذه الجماعة؟! فقلت: لا. فقالا: واهًا لك، وانصرفا، ثم أتيا من يتقدمه في العلم كثير من أصحابي، فسألاه، فأجابهما مسرعًا بما أقنعهما، وانصرفا عنه راضيين بجوابه، حامدين لعلمه، فبقيت مرتبكًا، وبحالهما وحالي معتبرًا. وإني لعلى ما كنت عليه في تلك المسائل إلى وقتي، فكان ذلك زاجر

(١) غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية لابن عباد، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، ود. محمود بن الشريف (١/ ٢٣٤).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٤٤).

نصيحة، ونذير عظـــة، تَزلَّل بهما قياد النفس، وانخفض لهما جنـــاح العُجب، توفيقًا منحته، ورشدًا أوتيته(١).

ومما يلحق بهذا الجانب أن يبين الله لنا عدم توقف الدعوة أو أعمال البر بصورها المختلفة علينا، فيقيض الله عَزَّوَجَلَّ من يقوم بالعمل وقت غيابنا عنه -لأي ســـبب من الأسباب- على أحسن وجه وأفضل بكثير من أدائنا له.

الشعور بعدم التميز عند الله

ومـــن صور التربية الربانية: أن يُشْـــعِر الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- الواحد منا بعدم تميزه عنده، أو أن له مكانة ليست لغيره.

فالتعرض للابتلاءات والنقص، والوقوع في الذنب، وعدم اســـتجابة الدعاء، وحرمان الرزق، وقلة التوفيق يتنافي مع ما يظنه الـــمُعجب بنفســـه أنه من أولياء الله الصالحين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون...

تأمل معي الرد القرآني عـــلى اليهود والنصارى عندما ظنوا أن لهم مكانة خاصة عنـــد الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ [المائدة: ١٨].

إخمال الذكر

ومن صـــور التربية الربانية للعبـــد: إخمال ذكره، وإبعاده عـــن الأضواء، وفتنة الشهرة، وثناء الناس عليه.

قال الفضيل بن عياض: بلغني أن الله تعالى يقول للعبد في بعض منته التي من بها

(١) أدب الدنيا والدين (ص: ٨٢).

عليه: ألم أنعم عليك؟ ألم أعطك، ألم أسترك؟ ألم أُخمل ذكرك [١]؟

وفي الحديث القدسي قال تعالى: «**إِنَّ أَغْبَطَ أَوْلِيَائِي عِنْدِي مُؤْمِنٌ خَفِيفُ الْحَاذِ ذُو حَظٍّ مِنْ صَلَاةٍ، أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ، وَكَانَ فِي النَّاسِ غَامِضًا لَا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ، فَعُجِّلَتْ مَنِيَّتُهُ، وَقَلَّ تُرَاثُهُ وَقَلَّتْ بَوَاكِيهِ**»[٢].

(فإخفاء ذكر العبد المؤمن -كما يقول ابن رجب- من أعظم نعم الله عليه، فهو يعيش به مع ربه عيشًا طيبًا، ويحجبه عن خلقه حتى لا يفسدوا عليه حاله مع ربه، فهذه هي الغنيمة الباردة، فمن عرف قدرها وشكر عليها فقد تمت عليه النعمة.

وكان الإمام أحمد يقول: طوبى لمن أخمل الله ذكره.

ولما اشتهر ذكره -رَحِمَهُ اللَّهُ- اشتد غمه وحزنه، وكثر لزومه لمنزله، وقل خروجه في الجنائز وغيرها، خشية اجتماع الناس عليه)[٣].

استصغار العمل ونسيانه

ومن صور التربية الربانية: أن يقلل الله عَزَّوَجَلَّ حجم العمل الذي يقوم به العبد في عينه، ويشعره بأنه لم يأتِ بجديد.

أخرج الإمام أحمد في الزهد أن سليمان بن داود -عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ- خرج بالناس

(١) ابن أبي الدنيا في كتاب التواضع والخمول (برقم: ١٧)، وأورده الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين، راجع إتحاف السادة المتقين للزبيدي (٨/ ٢٣٧).

(٢) رواه أحمد (٣٦/ ٤٩٨ برقم: ٢٢١٦٧)، والترمذي (٤/ ٥٧٥ برقم: ٢٣٤٧)، وابن ماجة (٢/ ١٣٧٨برقم: ٤١١٧)، والحاكم (٤/ ١٣٧برقم: ٧١٤٨).

(٣) مجموعة رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي - شرح حديث: إن أغبط أوليائي عندي (ص: ٧٥٥ - ٧٥٧) - الفاروق الحديثة - القاهرة..

يستسقي، فمر على نملة مستلقية على قفاها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنَّا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن رزقك، فإما أن تسقينا وإما أن تهلكنا، فقال سليمان للناس: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم(١).

وفيه أيضًا أن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: يا رب هل بات أحد من خلقك الليلة أطول ذكرًا مني؟ فأوحى الله عَزَّوَجَلَّ إليه: نعم الضفدع(٢).

ومما يلحق بهذا اللون من التربية الربانية: نسيان العمل بعد أدائه، فمن دلائل رحمة الله بعبده أنه -سبحانه- ينسيه عمله الصالح بعد قيامه به، من خلال شغل ذهنه بأمور أخرى تملأ عليه فكره، وتنقله بعيدًا عن التفكير في عمله، فلا يجد أمامه مجالًا لاستحسانه والإعجاب به.

تأخر الإمداد

ومن صور التربية الربانية: تأخر كشف الكرب عن العبد، ولهذا الأمر فوائد عظيمة، منها: أنها تكشف للعبد حقيقة ضعفه وفقره الشديد إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ومنها كذلك: أنها تُسقِط كل الدعاوى الزائفة حول الأسباب أو المواهب التي يظن المرء أنها لديه، وأن بإمكانها أن تُسعفَه في أي وقت.

فالذي يدعو الله بكشف كربه عند اشتداد الريح وهو على ظهر سفينة، يختلف كثيرًا في تضرُّعه عمن يدعو الله وهو في البحر وقد تعلَّق بخشبة.

والذي يدعو الله بعد أن تركته تلك الخشبة سيكون -بلا شك- أكثر تضرُّعًا

(١) الزهد للإمام أحمد (ص: ٨٧) - دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) المصدر السابق (ص: ٦٩).

وانكسارًا منه في الحالتين السابقتين[١].

فمن فوائد البلايا ولطائف أسرارها -كما يقول ابن رجب:

أنها توجب للعبد الرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والوقوف ببابه، والتضرع والاستكانة له، وذلك من أعظم فوائد البلايا. وقد ذم سبحانه من لا يستكين له عند الشدائد: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ٧٦﴾ [المؤمنون: ٧٦].

ومنها: أن البلاء يقطع قلب المؤمن عن الالتفات إلى مخلوق، ويوجب له الإقبال على الخالق وحده... فالبلاء يجمع بين القلب وبين الله، والعافية تجمع بينك وبين نفسك.

فكلما اشتد الكرب وعظم الخطب كان الفرج حينئذٍ قريبًا، لماذا؟! لأن الكرب إذا اشتدَّ وعظُمَ وتناهى وجدَ الإياس من كشفه من جهة المخلوق، ووقع التعلق بالخالق وحده، ومن انقطع عن التعلق بالخلائق، وتعلق بالخالق استجاب الله له، وكشف عنه.

ومنها: أن المؤمن إذا استبطأ الفرج ويئس منه، ولا سيما بعد كثرة دعائه وتضرعه ولم يظهر له أثر الإجابة: رجع إلى نفسه باللائمة ويقول لها: إنما أوتيتُ من قِبَلِك، ولو كان فيكِ خير لأُجبت. وهذا اللوم أحب إلى الله من كثير من الطاعات، فإنه يوجب انكسار العبد لمولاه، واعترافه له بأنه ليس بأهل لإجابة دعائه، فلذلك يسرع إليه حينئذٍ إجابة الدعاء وتفريج الكرب، فإنه تعالى عند المنكسرة قلوبهم من أجله، وعلى قدر الكسر يكون الجبر.

---

(١) المدخل لابن الحاج بتصرف.

فمن تحقق بهذا وشاهده بقلبه، علم أن نعم الله على عبده المؤمن بالبلاء أعظم من نعمه عليه في الرخاء[١].

مواقف عملية للتربية الربانية

هناك العديد من المواقف العملية لهذه التربية الربانية التي من شأنها أن تعرف العبد بنفسه وتضعه في حجمه الصحيح، وأنه لا يملك من الأمر شيئًا، وتعرفه كذلك بربه، وبأن مقاليد الأمور كلها في يديه، وأنه لا غنى عنه طرفة عين.

ومن هذه المواقف ما حدث لبعض عباد الله المصطفين، مثل ما حدث لرسوله الحبيب ﷺ عندما جاءه من يسأله عن أشياء لا يخبر عنها إلا نبي، وهي خبر أهل الكهف، وذي القرنين، وماهية الروح، فقال رسول الله ﷺ: «**أُخْبِرُكُمْ غَدًا عَمَّا سَأَلْتُمْ عَنْهُ**» ولم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غدًا، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها، لا يخبرنا بشيء عما سألناه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ من الله عَزَّ وَجَلَّ بسورة أصحاب الكهف[٢]، وكان فيها التوجيه الرباني: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

---

(١) نور الاقتباس (ص: ٢٠٩) في مشكاة وصية النبى ﷺ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لابن رجب (ص: ٢٠٩) – الجامع المنتخب لمجموع رسائل ابن رجب – دار المؤيد – جدة.

(٢) ذكره أصحاب السير: ابن هشام (١/ ٣٠١) تحقيق: السقا وزميليه، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٧٠). وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٥٧) لابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وأبي نعيم والبيهقي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مع الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ

وفي قصة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ والخضر تربية ربانية كذلك:

روى البخاري في صحيحه عن أُبي بن كعب أنه سمع رسول الله فيقول: «**إِنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ قَالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ**...» الحديث[1].

فكان في صحبة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ للخضر الكثير والكثير من المواقف والدروس التربوية لموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، تَحْمِلُ كُلُّ امْرَأَةٍ فَارِسًا يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ وَلَمْ تَحْمِلْ شَيْئًا إِلَّا وَاحِدًا سَاقِطًا أَحَدُ شِقَّيْهِ**». فقال النبي ﷺ: «**لَوْ قَالَهَا لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ**»[2].

وخرج داود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلى الساحل: فعبد ربه سنة، فلما تمت السنة قال: يا رب، قد انحنى ظهري وكلَّت عيناي، ونفدت الدموع، فلا أدري إلى ماذا يصير أمري، فأوحى الله عَزَّوَجَلَّ إلى ضفدع أن أجب داود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فقال الضفدع: يا نبي الله أَتَمُنُّ على ربك في عبادة سنة؟ والذي بعثك بالحق نبيًّا، إني على ظهر بردية منذ ثلاثين -أو ستين-

---

(١) صحيح البخارى (٦/ ٨٨ برقم: ٤٧٢٥)، كتاب تفسير القرآن، باب: «وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ....»، ومسلم (٤/ ١٨٤٧برقم: ٢٣٨٠).

(٢) صحيح البخاري (٤/ ١٦٢ برقم: ٣٤٢٤)، كتاب أحاديث الأنبياء باب: «ووهبنا لداود سليمان»، ومسلم: (٣/ ١٢٧٥ برقم: ١٦٥٤).

أسبحه وأحمده، وإن فرائصي ترعد من مخافة ربي، فبكى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ عند ذلك[١].

وروى ابن عيينة أن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: إلهي إنك ابتليتني بهذا البلاء، وما ورد عليّ أمر إلا آثرت هواك على هواي، فنودي من غمامة بعشرة آلاف صوت: يا أيوب أنَّى لك هذا؟ (أي من أين لك هذا؟) قال: فأخذ رمادًا ووضعه على رأسه، وقال: منك يا رب، منك يا رب[٢].

وخلاصة القول: أن أمر صلاحنا وشفائنا مما تلبس بنا من استعظام لأنفسنا إنما هو بيد الله عَزَّوَجَلَّ، وما علينا إلا أن نصدق معه سبحانه في طلبنا العلاج منه، ونترجم هذا الطلب بكثرة الدعاء والتضرع والإلحاح عليه بأن يدخلنا في رحمته ومعيته، وأن يصلح لنا شأننا كله، وأن يتولانا فيمن تولى، ويهدينا فيمن هدى، ويعافينا فيمن عافى، وأن يؤتي نفوسنا تقواها، وأن يقينا شرها، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

• • •

(١) تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص: ٣٨١).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٥٧٨).

الفصل الثاني

معرفة الله عَزَّوَجَلَّ ودورها في علاج العُجب

- أهمية معرفة الله.
- كيف نعرف الله؟
- وسائل المعرفة.
- التعرف على الله الغني الحميد.
- التعرف على الله القيوم.
- التعرف على الله المنعم.

معرفة الله عَزَّوَجَلَّ ودورها في علاج العُجب

أهمية معرفة الله

لمعرفــة الله عَزَّوَجَلَّ دور كبير في إخضاع القلب له ســبحانه، والتجلبب بجلباب العبودية من ذل وانكسار وخشية وافتقار، وكذلك رؤية النفس على حقيقتها ومدى ضعفها وعجزها وحاجتها إلى مولاها.

وبقدر المعرفة تكون العبودية

فعلى ســبيل المثال عندما يتعرف الواحد منا على شــخص ما معرفة عامة، فإن نظرته له ستكون نظرة عادية مثله مثل غيره لا تلفت انتباهه، فإذا اقترب منه وازدادت معلوماته عنه، وعن قدراته، وخبراته وشهاداته، أو المنصب الذي يتولاه فإن هذا من شــأنه أن يزيده احترامًا وهيبة وتقديرًا لهذا الشخص؛ مما ينعكس على طريقة تعامله معه، التي -بلا شك- ستختلف كثيرًا عما كانت عليه من قبل.

إذن فنحن نحتاج لمعرفة الله عَزَّوَجَلَّ لتزداد خشيتنا له، وخوفنا منه، ورجاؤنا فيه، وتوكلنا عليه، وغير ذلك من ألوان العبودية.

سأل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ربه: أي رب أي عبادك أخشى لك؟ قال: أعلمهم بي[١].

---

(١) الزهد لابن المبارك (ص: ٧٥).

كيف نعرف الله؟

الله عَزَّوَجَلَّ أخبرنا بأنه: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وأنه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١].

وأنه: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠ ﴾ [طه: ١١٠].

فما السبيل إذن إلى معرفته؟

... نعم لا يعرف الله إلا الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- كما قال رسول الله ﷺ: «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»(١).

ومع ذلك فقد أتاح لنا -سبحانه- جزءًا من المعلومات عنه بدرجة تتحملها عقولنا من خلال ما أخبرنا به من أسمائه وصفاته، التي أودع مظاهرها وآثارها في مخلوقاته، وبقدر تتبع هذه الآثار وربطها بأسمائه وصفاته تكون المعرفة.

فالقاعدة تقول: (من آثارهم تعرفونهم)، فعندما يصف الناس شخصًا ما بأنه محسن -مثلًا- فإن هذا الوصف لن يقع موقعه في نفسك إلا إذا رأيت آثار إحسانه.. وكلما تتبعت تلك الآثار وشاهدتها بنفسك يزداد يقينك بصحة وصفه بهذا الوصف.

ولله المثل الأعلى

فالله عَزَّوَجَلَّ لا نستطيع أن نراه في الدنيا، ولكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق هذا الكون كله وجعله يدل عليه، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ ﴾ [فصلت: ٥٣]، وأخبرنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأن له أسماء وصفات أودع آثارها في كونه ومخلوقاته.

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٥٢ برقم: ٤٨٦).

إذن فالطريقة السـهلة لمعرفة الله عَزَّوَجَلَّ: أن نتعرف على آثار أسمائه وصفاته، قال تعـالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، وعلى قدر التتبـع والتفكر في هذه الصفات تزداد المعلومات عن الله عَزَّوَجَلَّ، فينعكس ذلك على القلب بزيادة جوانب العبودية فيه.

وسائل المعرفة

للتعـرف عـلى أسـماء الله وصفاتـه وسـيلتان أساسـيتان، أتاحهما لنـا الله عَزَّوَجَلَّ وأمرنـا بـدوام التفكـر فيهما، وهما: كتـاب الله المقـروء (القرآن)، وكتـاب الله المنظور (الكون).

أما القرآن فمن أهم سـماته أنه كتاب تعريـف بالله عَزَّوَجَلَّ، من خلال دلالته على أسماء الله وصفاته، ووصفه لها وعرضه لآثارها في الكون والنفس، ليسهل على العبد نقل فكره إلى الكون ليشـاهد بنفسه ما تعلمه من القرآن، فيربط بذلك أحداث الحياة كلها بالله عَزَّوَجَلَّ وبأسـمائه وصفاته، ويتقلب قلبـه في ألوان من العبودية نتيجة تقلب الأحداث به فيستقبل النعمة بالشكر، والمصائب بالصبر والرضا، والقهر بالانكسار والاستسلام، والشدائد بالدعاء والتضرع.

وفى هذا الفصل سيتم إلقاء الضوء -بعون الله وفضله- على أهم جوانب المعرفة التي تفيدنا في إزالة أصنامنا، وهي:

١ - التعرف على الله الغني الحميد.

٢ - التعرف على الله القيوم.

٣ - التعرف على الله المنعم.

أولًا: التعرف على الله الغني الحميد

من صور الجهل بالله أن يستعظم العبد طاعته، ويظن أن له يدًا على الإسلام بصلاته أو جهاده أو دعوته...

من هنا تأتي أهمية التعرف على صفة استغناء الله عن عباده التي تترسخ من خلالها لدينا حقيقة أن الله غني عنا وعن عبادتنا: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ [إبراهيم: ٨].

فالله عَزَّوَجَلَّ لا تنفعه طاعتنا مهما بلغت، ولا تضره معصيتنا مهما عظمت: **«يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»**(١).

إن صلاحنا وجهادنا وكل ما نقدمه من طاعات لا ينفع الله بشيء، وإنما هو لنفعنا ومصلحتنا: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [العنكبوت: ٦].

فإن أحسنا فلأنفسنا، وإن أسأنا فعليها: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨].

---

(١) رواه الإمام مسلم (٤/ ١٩٩٤برقم: ٢٥٧٧).

وماذا عن حجم طاعتك؟

لينظر كل منا إلى حجم الطاعة التي يؤديها.. هل يظل طيلة الليل في صلاة، هل لسانه لا يفتر عن ذكر الله؟ إننا وإن فعلنا ذلك، فلا نسبة لهذه الطاعة مع عبادة المخلوقات الأخرى لله عَزَّوَجَلَّ:

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠ ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

فكيف نرى أعمالنا القليلة بعين التعظيم، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

تخيل أنك قد عزمت على التبكير لصلاة الجمعة، وخرجت من منزلك في الثامنة صباحًا -مثلًا- وفي طريقك للمسجد اعتقدت بأنك ستكون أول الداخلين إليه، وظل الشعور بالزهو يتملكك، فإذا بك تدخل المسجد فلا تكاد تجد موضعًا لقدمك! ماذا سيكون شعورك آنذاك؟! وهل سيستمر زهوك وإعجابك بنفسك أم ستستصغر فعلك؟!

وهذا هو الدور العظيم الذي تحدثه معرفة الله الغني الحميد؛ فعندما تُكثِر من التسبيح، وتظن أنك فعلت شيئًا غير مسبوق يأتيك القرآن ليقول لك: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١ ﴾ [الجمعة: ١].

وعندما يشعر المرء بتعبه من ركيعات يركعها لله، ويخالجه شعور بالرغبة في التخفيف من هذه العبادة يأتيه قوله تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ٣٨ ﴾ [فصلت: ٣٨].

إن شعور الواحد منا باستغناء الله عن عبادته، وعدم منفعته بها له دور كبير في محو أي خاطرة مَنّ أو إدلال على الله عَزَّوَجَلَّ بما يقوم به من أعمال...

وكذلك فإن التعرف على عبودية الكون لله عَزَّوَجَلَّ من شأنها أن تجعلنا نضع رأسنا في التراب حياء من الله، وخجلًا من حجم طاعتنا اليسيرة التي لا تكاد تساوي شيئًا بجوار عبادة أصغر مخلوق له سبحانه.

فلنعمل على التعرف على الله الغني الحميد من خلال القرآن، ومن خلال الكون المحيط: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النحل: ٤٨].

يقول أحد الصالحين: ما أصغي إلى صوت حيوان، ولا حفيف شجر، ولا خرير ماء، ولا ترنم طائر، ولا قعقعة رعد إلا أجدني مرددًا: ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ [النور: ٤١].

ويهتفُ حمدًا جمالُ الصباحِ وسحرُ الربيعِ الشهيِ العطر
وسحرُ السماءِ الشجيِ الوديع وهمسُ النسيمِ ولحنُ المطر
تسبحُهُ نغماتُ الطيور يسبحُهُ الظلُ تحتَ الشجر
يسبحُهُ النبعُ بينَ المروج يسبحْهُ دومًا أريجُ الزهر
يسبحُهُ النورُ بين الغصون وسحرُ السماءِ وضوءُ القمر(١)

(١) موارد الظمآن في محبة الرحمن لسيد بن حسين العفاني (ص: ٨٦) - مكتبة التابعين - القاهرة.

ثانيًا: التعرف على صفة القيومية[1]

الله عَزَّوَجَلَّ قائم علينا وعلى جميع شـئوننا؛ يحفظنا ويرعانا، ويمدنا بأسباب الحياة لحظة بلحظة. قائم على كل شيء في أجسـادنا لنستطيع في النهاية أن ننطق، ونسمع، ونرى، ونضحك، ونبكي... ألم يقل سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النجم: ٤٣].

وقائم كذلك عـلى هدايتنا وعصمتنا من الفجور: فكل صلاة نصليها هي بمدد منـه، وكذلك كل ذكر نذكره، وكل صالح نقوله، وكل خير نفعله: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ ﴾ [الحجرات: ٧].

مريض الرعاية المركزة

قد يدخل مريض إلى الرعاية وهو بين الحياة والموت.. فهو لا يستطيع الحركة ولا النطق.. لديه نقص شـديد في الدم، وعدم القـدرة على التنفس، وضعف في القلب، وفور دخول هذا المريض إلى قسـم الرعاية المركزة يتم إمـداده بأنابيب وتوصيلات مختلفة: واحدة تضخ له الدم، وثانية للتنفس، وثالثة للقلب، ورابعة للتغذية...

وبمرور الوقت تبدأ حالة المريض في التحسـن -بإذن الله- ويبدأ في اسـترداد عافيته... فما السـبب في ذلك؟! بلا شـك إن ما تم توصيله إليه من إمدادات كان له دور كبير في تحسن حالته، ولو أغلقت محابس تلك الإمدادات لتدهورت صحته مرة أخرى.

---

(١) تم بفضل الله بسط القول في بيان هذه الصفة في التمهيد للباب الأول.

ولله المثل الأعلى، فحالنا مع الله عَزَّوَجَلَّ وحاجتنا إلى إمداداته المتواليه علينا، أشــد مــن حاجة هذا المريض لِـــما تم توصيله إليه من إمــدادات. فهذا المريض دخل إلى المستشــفى وهو يعاني تدهورًا في بعض أجهزة جسمه، أما نحن بدون الله عَزَّوَجَلَّ فلا قيمة لأي خلية مــن خلايانا، ولا عضو من أعضائنا، ولا جهاز من أجهزتنا.. فالمدد الإلهي المتواصل لنا يشــمل كل ذرة من ذرات أجســامنا، فإن توقف هذا المدد فلن نستطيع أن نســتعيده: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [فاطر: ٢].

تمديدات الرحمة

من هنا يتضح لنا أن كل نعمة نحن فيها تعكس وجود مدد مستمر من الله عَزَّوَجَلَّ، يكفل عملها واســتمرار وجودها، ولو أغلق باب هــذا المدد لانتهى أمر هذه النعمة وتوقف عملها، فلا يوجد لشيء في هذا الكون قوة ذاتية تكفل له الاستمرار في العمل دون مدد من الله عَزَّوَجَلَّ.

معنى هذا أن كل خير نحن فيه يتوقف وجوده على اســتمرار المدد من الله في كل لحظة وطرفة عين، وكل نعمة توجد عند شــخص ولا توجد عند آخر تعكس وجود مدد إضافي للرحمة الإلهية عند هذا الشخص.

فإن كنت في شــك من هذا، فتأمل معي خطاب الله عَزَّوَجَلَّ لخير البشر محمد ﷺ، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أى بدون هذه الرحمة وهذا المدد من الله لن تلين لأصحابك. وعندما وصف الله الخــضر وما عنده من علــم قال عنــه: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الكهف: ٦٥].

ويذكرنا الله عَزَّوَجَلَّ بأن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما كان ليصل إلى ما وصل إليه من تمكين إلا برحمة ومدد من الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ﴾ [يوسف: ٥٦].

فلا نجاة لأحد إلا برحمة ومـــدد من الله عَزَّوَجَلَّ... وبهذا أخبر نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ابنه: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ [هود: ٤٢ - ٤٣].

وعندما انتهى ذو القرنين من بناء السد ماذا قال؟ ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ [الكهف: ٩٨].

عبودية صفة القيومية

مما لا شـــك فيه أن كثرة التفكر في هذه الصفة من شـــأنها أن تشعر العبد بعظيم حاجته لربه في كل أموره وأحواله، وعند كل قول أو فعل. وتجعله كذلك ينســـب أي خير هو فيه لله عَزَّوَجَلَّ، وأنه لا غنى له عنه طرفة عين.

ومن ثمار اليقين بهذه الصفة أيضًا: دوام الاســـتعانة بالله وحسن التوكل عليه في كل ما يريد العبد القيام به: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود: ٨٨].

وسائل المعرفة

أهم وسائل التعرف على هذه الصفة هي القرآن والكون:

- فمـــن خلال قراءتنا للقرآن علينا أن نبحث عن هذه الصفة وآثارها في الكون، كما سيأتي بيانه بمشيئة الله في فصل العلاج بالقرآن.
- **أمـا في الكـون:** فيمكننـا التعـرف على آثار هـذه الصفة مـن خلال رؤية الأشـياء

بعد توقف الإمداد الإلهي عنها وكيف تكون قيمتها؟! فعلى سبيل المثال: جريان السفن في البحر يتم بقيومية التعهد والرعاية والحفظ من الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا انقطع عنها هذا المدد توقفت في عرض البحر بلا حراك ولا حول ولا قوة: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [لقمان: ٣١].

- **وعلى مستوى الفرد**: فوقوع العبد في الذنب يعكس توقف إمداد العصمة من الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك فإن التقصير في القيام بواجب ما، يعكس توقف إمداد الإعانة من الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩].

- ويمكننا كذلك التعرف على هذه الصفة من خلال إحصاء مواضع المنع، وتوقف الإمداد الإلهي عن بعض النعم، التي تحدث لكل فرد على حدة، وبصورة شبه يومية، مثل: زيادة ضربات القلب، شد العضلات، حكة الجلد، ضيق التنفس...

وخلاصة القول: أن التعرف على صفة القيومية يحتاج إلى مداومة التأمل والتفكر في القرآن من ناحية، والكون من ناحية أخرى.

من هنا تظهر أهمية تخصيص وقت يومي لتتبع مظاهر تلك الصفة من خلال ورد القرآن، وتخصيص وقت آخر -ولو بضع دقائق- لإحصاء مواقف الحياة التي ظهرت فيها آثار صفة القيومية.

ثالثًا: التعرف على الله المنعم (معرفة حق الله على عباده)

التعرف على الله المنعم، ومعرفة حقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عباده من الأهمية بمكان في علاج تضخم الذات ورؤية العمل.

والمستهدف منه: أن لا يرى أحدنا لنفسه حقًّا على الله عَزَّوَجَلَّ لأجل عمله الصالح، فحقوق الله تعالى علينا أعظم من أن يقوم بها العباد، ونعمه أكثر من أن تحصى، وأنه لا يستوجب أحدنا بسعيه نجاحًا ولا فلاحًا، ولا نجاة من النار ولا فوزًا بالجنة.

هذا المستهدف لن نســـتطيع تحقيقه إلا إذا عرفنا حق الله على عباده، وأجبنا عن سؤال يقول: أين نحن من أداء هذا الحق؟!

يقول ابن القيم: لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على عبده نوعان من الحقوق لا ينفك عنهما:

أحدهما: القيام بأمره ونهيه اللذين هما محض حقه علينا.

الثانى: شكر نعمه التي أنعم بها علينا.

فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يطالبنا بشكر نعمه والقيام بأمره.

فبالنسبة لأمره ونهيه: فإن الدين ليس مجرد ترك المحرمات الظاهرة بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله.. مثل الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة لله ورسوله وعباده، ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه.. وأقل الناس دينًا وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات وإن زهد في الدنيا كلها[١].

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ٢٣٠، ٢٣١).

هذا بالنسبة لحق الله في أوامره ونواهيه.

أما حق الله في نعمه على عباده فهذا أمر يحتاج إلى بعض البيان والتفصيل.

من صور النعم

الله عَزَّوَجَلَّ أنعم على كل واحد منا بنعم لا تعد ولا تحصى.

منها: نعم الإيجاد من العدم؛ إنسانًا سويًّا، عاقلًا، له عين ترى، وأذن تسمع، وعقل يفكر، وقلب ينبض، ورئة تستنشق الهواء، وكليتان تنقيان الدم من السموم، ويدان تبطشان، ورجلان يمشي بهما، وفم وأسنان ولسان وحواس، وأجهزة المناعة والامتصاص والإخراج، والهضم، والغدد، و...

وإذا أردت أن تعرف قيمة نعمة واحدة من هذه النعم فأغمض عينيك، أو سد أذنيك، أو امنع يديك من الحركة، ثم تأمل تأثير ذلك عليك... انظر إلى أهل البلاء لتعرف معنى العافية. تذكر المطروحين في الطريق، ومرضى المستشفيات، تذكر المشلول والأبكم والأصم و...

ومن النعم كذلك: نعم الإمداد؛ إمداد كل عضو في جسمك وكل خلية فيه بما يُمكِّنه من الاستمرار في أداء عمله.

ومن النعم: الحفظ الدائم لهذه الأعضاء

ومنها: نعم التسخير؛ تسخير الوالدين للاعتناء بك وتربيتك، وتسخير الأرض والشمس والهواء والرياح والطعام وسائر أعضائك لك.

ومن النعم أيضًا: نعمة الأمن والستر.

ومن النعم أيضًا: نعم الهداية إلى الإسلام وإلى الإيمان والثبات عليهما

ومنها: نعـم العصمة من الكفر وعبـادة الأوثان؛ فقد عصمـك من أن تكون هندوسيًّا أو يهوديًّا أو نصرانيًّا. وكذلك العصمة من سائر الذنوب: كالزنى واللواط والقتل والسرقة وشرب الخمر والربا وإدمان المخدرات و... فكل معصية تحدث على الأرض ولا تفعلها تحمل في طياتها عصمة لك من الله عَزَّوَجَلَّ.

ومنها: نعم سـبق الفضل والاجتباء؛ فأنا وأنت لم نختر لأنفسنا أن نكون في هذا العصر، أو أن نكون من أبوين مسـلمين، فرحمته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وفضله علينا سـبقت وجودنا، فلم يشـأ أن يخلقنا في زمن قوم عاد أو ثمود أو مـن آل فرعون، ولم يخلقنا كذلك من أبوين يهوديين أو يعبدان الصليب أو يسـجدان للبقر، ولم يجعلنا في أماكن الفتن والاضطهاد.

نِعم كثيرة لا تعد ولا تحصى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

فإن كان الأمر كذلك فما هو حق هذه النعم؟!

الشكر والعبادة

يقول تعالى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [الأعراف: ١٤٤].

فكل نعمة أنعمها الله علينا لها مقابل، ألا وهو الشـكر: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: ٧٨].

ومن أهم صور الشـكر: العبادة: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ [آل عمران: ٤٣].

فإن كان الأمر كذلك فهل نستطيع أن نؤدي شكر كل النعم التي حبانا الله إياها؟!

حجم الشكر المطلوب

لو افترضنا أن كل نعمة من نعم الله علينا تحتاج إلى ساعة -على الأقل- من السجود لله عَزَّوَجَلَّ كل يوم لتستمر في أداء دورها.. إما أن أسجد هذه الساعة أو تمتنع النعمة عنك، فالقلب سيتوقف، والعين لن تبصر، والكبد لن تعمل، والكلية لن تنقي السوائل، والنخاع لن يفرز خلايا الدم، وخلايا الجسم لن تمتص السكر.. البول سيحبس، والدم لن يتأكسد، والغدد سيتوقف إفرازها... لن نتمكن من السماع أو الكلام أو الشم أو اللمس... المعدة سترفض استقبال الطعام، والعضلات سترتخي، والنوم لن يأتي...

لو افترضنا ذلك في كل ما أنعم الله به علينا... لوجدنا أننا نحتاج إلى مئات بل آلاف الساعات نسجد فيها لله كل يوم لنؤدي جزءًا يسيرًا من حقه علينا فيما حبانا به من نعم...

جاء في الحديث: «**لَوْ أَنَّ رَجُلًا يَخِرُّ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ يَوْمِ وُلِدَ إِلَى يَوْمِ يَمُوتُ هَرَمًا فِي مَرْضَاةِ اللهِ تَعَالَى لَحَقَّرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1].

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢٩/ ١٩٧ برقم: ١٧٦٤٩)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٠٣) وفي مسند الشاميين (برقم: ١١٣٨)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٥، ٥/ ٢١٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (برقم: ٧٦٧).

هـذه الحقيقـة عندمـا تسـتقر في كيـان الإنسـان فإن مـن شـأنها أن تنسـيه عمله الصالـح، بمعنـى أنـه لن يظـن أن لـه مكانة عنـد الله بهذا العمـل، أو أنه يسـتحق به دخـول الجنـة، ودرجاتهـا العـلى، بل يعمـل ويجتهد فيـه، ثم يسـتغفر الله بعـد القيام بـه لشـعوره بأن حـق الله عليه أعظـم مما يفعـل، وأنـه إن لم تتداركه رحمـة الله وعفوه فسـيهلك، كمـن أدان شـخصًا بمبلـغ كبير من المـال يبلغ مثـلًا مليون دينـار، ثم قام هـذا الشـخص بالاجتهـاد في العمـل، وفي نهاية كل شـهر قام بسـداد درهـم واحد! مـا هو شـعور هـذا الشـخص وهو يقـدم الدرهـم لدائنـه؟! هـل هو شـعور الفخر والإعجـاب بهـذا الدرهـم، أم أنه سـينكس رأسـه وهو يعطيـه له، ويشـعر بتقصيره الشـديد في حقـه، ويسـتعطفه ويرجوه أن يسـامحه على تقصـيره؟! بل يـرى أن قبوله له محض فضل منه وإحسان.

هذا لو كان الدين يساوي ذلك فقط، فما بالك بدين الله علينا الذي تعجز قدرات العقل عن إحصائه؟!

كم تساوي نعمة البصر؟!

عـن جابـر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا عن جبريـل عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**أَنَّ عَابِدًا عَبَـدَ اللهَ عَلَى رَأْسِ جَبَـلٍ فِـي الْبَحْـرِ خَمْسُـمِائَةِ سَـنَةٍ، ثُـمَّ سَـأَلَ رَبَّـهُ، أَنْ يَقْبِضَـهُ سَـاجِدًا، قَـالَ جِبْرِيلُ: فَنَحْـنُ نَمُـرُّ عَلَيْـهِ إِذَا هَبَطْنَـا وَإِذَا عَرَجْنَـا، وَنَجِـدُ فِـي الْعِلْـمِ أَنَّـهُ يُبْعَـثُ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُوقَـفُ بَيْـنَ يَـدَيِ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ **فَيَقُـولُ الـرَّبُّ** عَزَّوَجَلَّ: **أَدْخِلُـوا عَبْـدِي الْجَنَّـةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُـولُ الْعَبْـدُ: يَـا رَبِّ بِعَمَلِـي، يَفْعَـلُ ذَلِـكَ ثَلَاثَ مَـرَّاتٍ، ثُـمَّ يَقُـولُ اللهُ لِلْمَلَائِكَةِ: قَايِسُـوا عَبْـدِي بِنِعْمَتِـي عَلَيْـهِ وَبِعَمَلِـهِ، فَيَجِـدُونَ نِعْمَـةَ الْبَصَرِ قَـدْ أَحَاطَـتْ بِعِبَادَتِهِ خَمْسُـمِائَةِ سَـنَةٍ، وَبَقِيَـتْ نِعْمَـةُ الْجَسَـدِ كُلُّـهُ، فَيَقُـولُ: أَدْخِلُوا عَبْـدِي النَّـارَ: فَيُجَرُّ**

إِلَـى النَّـارِ. فَيُنَـادِي: بِرَحْمَتِـكَ أَدْخِلْنِي الْجَنَّـةَ، بِرَحْمَتِـكَ أَدْخِلْنِـى الْجَنَّـةَ فَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ. قَالَ جِبْرِيلُ: إِنَّمَا الْأَشْيَاءُ بِرَحْمَةِ اللهِ يَا مُحَمَّدُ»[١].

إذن فلو عذب الله أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم.

يقول رسول الله ﷺ: «**لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ**»[٢].

فمهما عملنا واجتهدنا فلن يكون عوض هذا العمل النجاة من النار والفوز بالجنة؛ لذلك قال رسول الله ﷺ لصحابته: «**لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ**»[٣].

فإن كان كل فرد مطالب بشكر النعم التي حباه الله إياها؛ فإن أعماله كلها لن تفي بحق شكر نعمة واحدة، وسيبقى سائر النعم لا يقابلها شكر، فيصبح صاحبها مستحقًّا للعذاب بذلك.

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «**إِنَّ الرَّجُلَ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَوْ وُضِعَ عَلَى جَبَلٍ لَأَثْقَلَهُ، فَتَقْدُمُ النِّعْمَةُ مِنْ نِعَمِ اللهِ فَتَكَادُ أَنْ تَسْتَنْفِذَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَتَطَاوَلَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ**»[٤].

---

(١) رواه الحاكم (٤/ ٢٧٨برقم: ٧٦٣٧) وقال: صحيح الإسناد ووافقه ابن القيم في شفاء العليل (ص: ٣٠٣) ، والترهيب والترغيب للمنذري (٤/ ٢١٦ برقم: ٥٤٥٣).

(٢) سنن أبي داود، كتاب السنة -باب في القدر (٥/ ٢٩١ برقم: ٤٦٦٦) تحقيق عوامة، سنن ابن ماجة -باب في القدر (برقم: ٧٧).

(٣) البخاري -واللفظ له- كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (٧/ ٢٣٢ برقم: ٦٤٦٣)، ومسلم (٤/ ٢١٦٩ برقم: ٢٨١٦) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب «لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى».

(٤) رواه الحاكم (٤/ ٢٧٩ برقم: ٧٦٣٨) وقال: صحيح الإسناد شاهد لحديث سليمان بن هرم.

فمن استعظم عمله، ورأى أن له حقًّا على الله به، طالبه سبحانه بحقه عليه.

قال وهب: عبد الله عابد خمسين عامًا، فأوحى الله إليه: إني قد غفرت لك. قال: أي رب وما تغفر لي ولم أذنب، فأذن الله لعرق في عنقه يضرب عليه فلم ينم، ولم يصل، ثم سكن ونام، ثم أتاه ملك فشكا إليه، فقال: ما لقيت من ضربان العرق، فقال الملك: إن ربك يقول: إن عبادتك خمسين عامًا تعدل سكون العرق(١).

بين العدل والإحسان

إذن فهناك طريقتان يحاسب الله عَزَّوَجَلَّ بها عباده: العدل والإحسان.

فمن دخل على الله عَزَّوَجَلَّ وكأنه يحمل دفترًا وقد سجل فيه كل أعماله ويريد عوضًا عنها، فقد عرض نفسه للعدل أي لمناقشة الحساب بل والعذاب والعياذ بالله.

ومن دخل على الله تعالى من باب الإفلاس التام، وعدم رؤية أعماله، واستقلاله لها، وشعوره بالتقصير الشديد في أدائه لحق الله، واليقين بأنه ليس له حق على الله عَزَّوَجَلَّ بعمله، وسؤاله الجنة بطريق الاستجداء. هذا العبد بهذا الشعور قد عرّض نفسه لإحسان الله إليه وتلقي رحماته وعدم مناقشته الحساب؛ حساب النعم.

عن أنس مرفوعًا: يؤتى بالنعم يوم القيامة، ويؤتى بالحسنات والسيئات، فيقول الله لنعمة من نعمه: خذي حقك من حسناته، فما تترك له حسنة، إلا ذهبت بها(٢).

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر (برقم: ١٤٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (برقم: ٤٣٠٢) برواية ابن أبي الدنيا، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٦٨)، وابن القيم في عدة الصابرين.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر (ص: ١٢ برقم: ٢٤).

المغفرة أولًا

من هنا يتبين لنا أن عملنا مهما كان حجمه، فلن يوجب بمفرده النجاة من النار، فضلًا عن دخول الجنة. فلا أمل لدينا إلا في رحمة الله ومغفرته، وتجاوزه عن حقه علينا، وعدم محاسبتنا على نعمه.

مات داود الطائي فقام ابن السماك بعد دفنه يثني عليه بصالح عمله ويبكي والناس يبكون، ويصدقونه على مقالته ويشهدون بما يثني عليه، فقام النهشلي فقال: اللهم اغفر له وارحمه، ولا تكله إلى عمله[(١)].

وفي القرآن نجد أن الله عَزَّ وَجَلَّ ينقل إلينا نماذج غاية في الاجتهاد في ما أمرهم به، ويعقب على هذا بأن جزاءهم المغفرة، ثم بعد ذلك دخول الجنة، نعم.. فالمغفرة أولًا: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

[آل عمران: ١٩٥].

أين نحن من عمر؟!

من هنا كان خوف الصالحين من الحساب يوم القيامة، ورؤيتهم الدائمة لأعمالهم بعين النقص.

فهذا عمر بن الخطاب عند موته يراه عثمان بن عفان وهو يقول: ويلي، وويل أمي إن لم يغفر لي.. قالها ثلاثًا ثم قضى[(٢)].

---

(١) المحجة في سير الدلجة لابن رجب (ص: ٤٢) - دار البشائر الإسلامية - بيروت.

(٢) الزهد للإمام أحمد (١/ ٩٨ برقم: ٦٢١).

وفي طبقات ابن سعد أن العباس عم رسول الله ﷺ كان خليلًا لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما أصيب عمر جعــل يدعو الله أن يريه عمر في المنام، فرآه بعد حَوْل وهو يمسح العرق عن جبينه فقال: ما فعلت؟ قال: هذا أوان فرغت، وإن كاد عرشي ليُهَد لولا أني لقيته رؤوفًا رحيمًا(١).

لماذا العمل؟!

قد يقول قائل: ولم العمل إذا كانت أعمالنا لن تكون ســببًا في نجاتنا من النار أو الفوز بالجنة؟!

الإجابة عن هذا الســؤال تستدعي منَّا تذكر مثال صاحب الدَّين، والــمَدِين، الذي تم ذكره في الصفحات السابقة.

فصاحب الدَّين عندما يرى اســتهتارًا من المدين وعدم مبالاته بالســداد، فإنه يعرض عنه ويغضب منه، ولا يفكر في إسقاط دينه، بخلاف من يراه مجتهدًا في السداد -مع عدم قدرته على الوفاء- فإنه قد يتجاوز عنه. قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٥٦ ﴾ [الأعراف: ٥٦].

فالعمل والاجتهــاد في فعل الخيرات ما هو إلا وســيلة لنيــل الرحمة والمغفرة والتعرض للعفو والتجاوز.

لذلــك نجــد القــرآن يطالبنــا بالاجتهــاد في العمــل للتعــرض للرحمــة والمغفــرة الإلهيــة، التــي إذا ما تمت للعبد فســيتبعها -بمشــيئة الله- دخول الجنــة، فضلًا ورحمة منه سبحانه.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٢٨٦) - دار الكتب العلمية - بيروت.

قال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

لذلك كان حال المؤمنين أنهم: ﴿ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

أي يفعلون ويفعلون من الطاعات والقربات ويخافون ألا يتقبلها الله منهم؛ لاستشعارهم أنها لا تليق بعظمته سبحانه، ولا بحقه عليهم، وهذا الشعور من شأنه أن يدفعهم للاستغفار بعد الطاعة، لا الإعجاب بها أو استعظامها.

قال الحسن البصري: لقد أدركت أقوامًا إذا عملوا الحسنة دأبوا على شكرها وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا سيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها، فما زالوا على ذلك، فوالله ما سلموا من الذنوب، وما نجوا إلا بالمغفرة[١].

من فوائد النظر في حق الله

إذن فكثرة التفكر والنظر في حق الله ودينه علينا لها كثير من الفوائد التي من شأنها أن تعيننا على استصغار أنفسنا وأعمالنا.

فمن هذه الفوائد:

■ **عدم رؤية العمل الصالح أو الاعتماد عليه:** بل استصغاره، والنظر إليه بعين النقص مهما كان اجتهاد العبد، فالذي يجتهد ويجتهد، ثم يسدد بضعة دراهم من

(١) الزهد للإمام أحمد (برقم: ١٦٥٠).

دينه البالغ المليون دينار، لن يشعر بأنه قدم شيئًا يذكر، فتراه دومًا مستصغرًا ما يقدمه لدائنه طامعًا في عفوه.

■ **عدم احتقار الآخرين أو الشعور بالأفضلية عليهم**: فالكل مدين لله عَزَّوَجَلَّ، ولا يسع الجميع سوى عفوه، وإلا فالنار مصير من لم يدركه ذلك العفو.

فالذي يقدم خمسة دراهم لصاحب الدين الكبير لن يشعر بأنه أفضل ممن قدم درهمًا أو نصف درهم، فالكل مقصر، والكل يستحق العقوبة، ولا أمل إلا في المسامحة والعفو.

■ **الخوف الدائم من عدم قبول العمل**: فمن الطبيعي ألا يقبل صاحب الدين الكبير، سداد جزء يسير منه، فإن قبله فهذا محض فضل وإحسان منه.

■ **الحذر الشديد من الركون إلى النفس أو الإعجاب بها**: حتى لا يتعرض العبد لمقت الله فيعامله بالعدل لا بالإحسان، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾ [التكاثر: ٨].

يقول ابن القيم: فمن أنفع ما للقلب: النظر في حق الله على العبد، فإن ذلك يورثه مقت نفسه، والإزراء عليها، ويخلصه من العُجب ورؤية العمل، ويفتح له باب الخضوع والذل والانكسار بين يدى ربه واليأس من نفسه، وأن النجاة لا تحصل إلا بعفو الله ومغفرته ورحمته(١).

---

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم (١/ ١٤٣) -المكتب الإسلامي- بيروت.

■ **سؤال الجنة استجداءً لا استحقاقًا:** فمن تفضل الله عليه، وقبل عمله، وتجاوز عن حقه -سبحانه- وعفا عنه، أدخله الجنة ورفعه في درجاتها بهذا العمل القليل الذي أداه.. رحمة منه -سبحانه- وفضلًا.

(ولا ينافى هذا ما أحقه سبحانه على نفسه من إثابة عابديه وإكرامهم، فإن ذلك حق أحقه على نفسه بمحض كرمه وبره وجوده وإحسانه لا باستحقاق العبيد، أو أنهم أوجبوه عليه بأعمالهم)[١].

وسائل المعرفة

التعرف على الله المنعم، وحقه المستحق علينا يستدعي منا معرفة نعمه علينا، وكلما توسع العبد في معرفة النعم ازداد شعوره بالتقصير في حق مولاه...

كيف نتعرف على النعم؟

■ من خلال القرآن

أفاض القرآن في تعريف الناس بنعم الله عليهم، وحق هذه النعم، فعلينا بتتبع الآيات التي تتحدث في هذا الموضوع، ونحصي من خلالها نعم الله علينا. كقوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [النحل: ١١٤].

وقوله: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨].

(١) تهذيب مدارج السالكين.

■ من خلال أحداث الحياة

وذلك من خلال تفكر الواحد منا في نعم ربه عليه، وحبذا لو تم تسجيلها لتسهل العودة إليها كل فترة...

ومن معينات عد النعم: رؤية أهل البلاء، فما من مرض أو نقص يصيب إنسانًا، ولم تصب أنت به إلا ويعكس نعمة من نعم العافية لديك.

وكذلك ما من معصية تحدث على ظهر الأرض ولا تفعلها إلا وتعكس نعمة من نعم العصمة الإلهية لك.

■ مجالس ذكر النعم

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١١].

فمجالس ذكر النعم من الأهمية بمكان للتعرف على الله المنعم، واستشعار تقصيرنا في حقه... هذه المجالس عبادة عظيمة، يباهي الله بها الملائكة، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ للهِ سَيَّارَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَطْلُبُونَ حِلَقَ الذِّكْرِ فَإِذَا أَتَوْا عَلَيْهِمْ حفُّوا بِهِمْ ثُمَّ بَعَثُوا رَائِدَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ إِلَى رَبِّ الْعِزَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَتَيْنَا عَلَى عِبَادٍ مِنْ عِبَادِكِ يُعَظِّمُونَ آلَاءَكَ، وَيَتْلُونَ كِتَابَكَ، وَيُصَلُّونَ عَلَى نَبِيِّكَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَيَسْأَلُونَكَ لِآخِرَتِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، فَيَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: غَشُّوهُمْ رَحْمَتِي، فَيَقُولُونَ يَا رَبِّ إِنَّ فِيهِمْ فُلَانًا الْخَطَّاءَ، إِنَّمَا اعْتَنَقَهُمْ اعْتِنَاقًا، فَيَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: غَشُّوهُمْ رَحْمَتِي، فَهُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ**»[1].

---

(١) رواه البزار بإسناد حسن (١٣/ ١١٦ برقم: ٦٤٩٤)، وله رواية عند مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل مجالس الذكر (٤/ ٢٠٦٩ برقم: ٢٦٨٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، =

جلس الفضيل بن عياض، وسفيان بن عيينة ليلة إلى الصباح يتذكران النعم، فجعل سفيان يقول: أنعم الله علينا في كذا، أنعم الله علينا في كذا، فعل بنا كذا، فعل بنا كذا[(١)].

■ التفكر في النعم

ومع إحصاء النعم، علينا أن نتفكر في كل نعمة على حدة، وما فيها من جوانب مختلفة للمدد الإلهي، فعلى سبيل المثال: التفكر في الطاعة وكم نعمة أنعمها الله عليك لكي تقوم بها.

يقول أبو حامد الغزالي: أما نعمته عليك في الطاعة فقد: أمكنك منها وأعطاك الآلة، وأزاح عنك العوائق حتى تفرغت لهذه الطاعة، وخصك بالتوفيق والتأييد ويسرها عليك، وزينها في قلبك حتى عملتها، ثم مع جلاله وعظمته واستغنائه عنك، وعن طاعتك، وكثرة نعمه عليك، أعَدَّ على هذا العمل اليسير الثناء الجزيل والثواب العظيم الذي لا تستحقه[(٢)].

= عَن النَّبيِّ ﷺ، قَالَ: «إنَّ للَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَلَائِكَةً سَيَّارَةً، فُضُلًا يَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فيه ذِكْرٌ قَعَدُوا معهُمْ، وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بأَجْنِحَتِهِمْ، حتَّى يَمْلَؤُوا ما بيْنَهُمْ وبيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعِدُوا إلى السَّمَاءِ، قالَ: فَيَسْأَلُهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَهو أَعْلَمُ بهِمْ: مِن أَيْنَ جِئْتُمْ؟ فَيقولونَ: جِئْنَا مِن عِندِ عِبَادٍ لكَ في الأرْضِ، يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيُهَلِّلُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيَسْأَلُونَكَ، قالَ: وَمَاذَا يَسْأَلُونِي؟ قالوا: يَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ، قالَ: وَهلْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قالوا: لَا، أَيْ رَبِّ قالَ: فَكيفَ لو رَأَوْا جَنَّتِي؟ قالوا: وَيَسْتَجِيرُونَكَ، قالَ: وَمِمَّ يَسْتَجِيرُونَنِي؟ قالوا: مِن نَارِكَ يا رَبِّ، قالَ: وَهلْ رَأَوْا نَارِي؟ قالوا: لَا، قالَ: فَكيفَ لو رَأَوْا نَارِي؟ قالوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ، قالَ: فَيَقولُ: قدْ غَفَرْتُ لهمْ فأعْطَيْتُهُمْ ما سَأَلُوا، وَأَجَرْتُهُمْ ممَّا اسْتَجَارُوا، قالَ: فَيَقولونَ: رَبِّ فيهم فُلَانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ، إنَّما مَرَّ فَجَلَسَ معهُمْ، قالَ: فَيَقولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ هُمُ القَوْمُ لا يَشْقَى بهِمْ جَلِيسُهُمْ».

(١) الشكر لابن أبي الدنيا (١/ ٤١ برقم: ١١٤).

(٢) منهاج العابدين لأبي حامد الغزالي (ص: ٢٢١) - مكتبة الجندي - القاهرة.

■ المغفرة أولًا

علينا أن نبحث في القرآن عن الآيات التي تقرر حقيقة أن دخول الجنة، والنجاة من النار، إنما هي محض فضل ورحمة من الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤١ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ ﴾ [الدخان: ٤١، ٤٢].

وأن سعينا واجتهادنا لا يستحق بذاته دخول الجنة، وإنما هو للتعرُّض لرحمة الله ومغفرته: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢١ ﴾ [الحديد: ٢١].

فبكثرة النظر في مثل هذه الآيات، يترسخ مدلولها في العقل الباطن عند الإنسان، لتنطلق أفكاره وخواطره منها، ويوقن بأنه إما عفو الله أو النار.

• • •

الفصل الثالث

معرفة حقيقة الإنسان وطبيعة النفس

- حقيقة الإنسان.
- تعرف على أصلك.
- وماذا عن حجمك؟
- ضعف الإنسان.
- مسكين أيها العاجز.
- الجهل.
- الفقير المحتاج.
- الرسائل الإلهية.
- طبيعة النفس.
- مقت النفس.
- كيف كان الصالحون ينظرون إلى أنفسهم؟
- هل يمكن للنفس أن تأمر بخير؟!
- النفس هي النفس.
- هل صرت ملكًا؟
- مفهوم التكليف.
- ما أقبح الرضا عن النفس!
- كيف نتعامل مع أنفسنا؟!

معرفة حقيقة الإنسان وطبيعة النفس

والمستهدف من معرفة حقيقة الإنسان: اليقين بعجزه وضعفه وجهله وافتقاره إلى كل ما يقيمه ويصلحه، فإذا ما تيقن بذلك ظهر له مدى حاجته لربه، وأنه لو تخلى عنه طرفة عين لهلك.

أما النفس فالمطلوب هو معرفة طبيعتها من حب الفجور والطغيان والعلو، وأنها لو تُركت لَـمَا أمرت بطاعة ولا تركت معصية، فإذا عرف ذلك دام حذر العبد منها وعدم رضاه عنها.

حقيقة الإنسان

تعرف على أصلك

أصل الإنسان هو التراب الذي يمشي عليه، والذي لا يساوي -في نظره- شيئًا مذكورًا، أما بداية خلقه فمن نطفة، لو نظر إليها الإنسان لتقزز منها: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾

[عبس: ١٧ - ٢٠].

إذن فأصلنا حقير: لم تتكون أجسادنا من معادن نفيسة، بل عناصرها مثل عناصر التراب. هذا هو أصلك أيها الإنسان: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [الطارق: ٥].

فإذا شمخت بأنفك فتفكر في أصلك وما تحمله في بطنك.

حكي أن مطرف بن عبد الله بن الشخير نظر إلى المهلب ابن أبي صفرة، وعليه حلة، يسحبها، ويمشي الخيلاء. فقال: يا أبا عبد الله، ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله؟ قال المهلب: ألا تعرفني؟ فقال: بل أعرفك؛ أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة(١).

فكيف يعجب بنفسه من حاله كذلك؟!

إذن فدوام تذكر الواحد منا لأصله من شأنه أن يبعد عنه العُجب والخيلاء. عن أنس قال: كان أبو بكر يخطبنا فيذكر بدء خلق الإنسان حتى إن أحدنا ليقذر، ويقول: خرج من مجرى البول مرتين(٢).

من هنا كان الصحابة يحبون السجود على التراب، وتعفير الوجه به، ليتذكروا أصلهم ويبعدوا الكبر عن أنفسهم.

قال الحسن: من خصف نعليه، ورقَّع ثوبه، وعفر وجهه لله عَزَّوَجَلَّ، فقد برئ من الكبر(٣).

وماذا عن حجمك؟

خلق الله الإنسان، وجعل حجمه صغيرًا بالنسبة للكون المحيط به، فالسماوات الطباق، والجبال الشاهقات لها دور كبير في تعريف الإنسان بحجمه الصغير؛ ومن ثم إزالة الكبر من نفسه: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ٣٧ ﴾ [الإسراء: ٣٧].

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٣١).
(٢) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا (ص: ١٩٩ برقم: ٢٠٠) طبع دار الاعتصام.
(٣) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا (ص: ٧٨ برقم: ٢٠٧).

ضعف الإنسان

خلق الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان ضعيفًا، يقول تعالى: ﴿ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨ ﴾ [النساء: ٢٨].

خلقه ضعيفًا في كل شيء، فلا يستطيع أن يقاوم وساوس الشيطان.

وليس بمقدوره أن يقاوم نفسه وشهواتها.

ضعيفًا أمام المال والنساء والشهرة والأضواء.

ضعيفًا في جثمانه، ضعيفًا أمام سلطان النوم، ضعيفًا أما أصغر الفيروسات...

فالأصل في الإنسان الضعف، وكل مظهر من مظاهر مقاومته لهذه الأشياء فهي بفضل وإعانة من الله عَزَّوَجَلَّ، ولو تركه لضعفه ما قاوم نظرة محرمة، ولا مالًا حرامًا، ولا مرضًا من الأمراض: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا ﴾ [النور: ٢١].

ولكننا كثيرًا ما ننسى هذه الحقيقة، فترى الواحد منا يصدق نفسه بأنه يستطيع مقاومة فتنة النساء، أو المال، ويستطيع السهر وعدم النوم، ولا يغريه بريق الذهب و...

فما الحل إذن لكي يقف الإنسان على حقيقة ضعفه؟!

الحل يكمن في حسن التعامل مع الدواء الرباني الذي يتمثل في رسائله للبشر، التي تكشف لهم حقيقة ضعفهم.. هذه الرسائل تأتي الجميع بدون استثناء، وما علينا إلا أن نحسن استقبالها ونفهم المراد منها..

فمن الرسائل التي تكشف ضعف الإنسان أمام نفسه: وقوع حشرة عليه كالبعوضة -مثلًا- وعدم قدرته على التخلص منها أو تفادي لدغتها.

وكذلك بعض الزواحف التي يفاجأ الإنسان بوجودها كل فترة، وينتابه شعور بالضعف أمامها.

ومن صور ذلك أيضًا: عدم القدرة على القيام بالطاعة في بعض الأحيان، فتجد الواحد منا يسمع أذان الفجر ولا يستطيع النهوض للصلاة، ويتمنى صيام يوم من الأيام تطوعًا لله ولا يقدر على ذلك.

ومن تلك الرسائل: أن يتركك فريسة لمرض من الأمراض ليكشف حجم ضعفك أمام ميكروب لا يكاد يُرى بالعين.

ومنها أن يتركك لوساوس الشيطان فتظن سوءًا بالآخرين، وتحسدهم، وتتمنى زوال الخير عنهم: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: ٨٣].

إذن فمن أهم الوسائل التي تكشف للإنسان حقيقة ضعفه: حسن استقباله لرسائل المنع التي تأتيه كل يوم: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠].

مسكين أيها العاجز

من الحقائق التي تنبني عليها شخصية الإنسان أنه عاجز، لا يستطيع جلب النفع لنفسه، أو دفع الضر عنها، كالشخص الذي أصاب الشلل أنحاء جسده. هل يستطيع دفع ذبابة وقفت على عينه؟!

كذلك نحن جميعًا عجزة، يتمثل فينا قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

نريد الشيء ولا يحدث، ولا نريده ويحدث!

ومن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بعباده، تذكيره الدائم لهم بهذه الحقيقة؛ ليشتد شعورهم بالحاجة إليه، وابتعادهم عن الكبر وصوره.

والتذكير الإلهي بحقيقة عجز الإنسان يتمثل في صور القهر المختلفة التي لا يكاد يمر يوم إلا وفيه الكثير منها:

يريد الرجل أن تلد زوجته ولدًا فتأتي بأنثى، والأم تريد أن يكون وليدها يشبهها فيشبه أباه...

يذهب أحدنا إلى الفراش متعبًا ويريد النوم فلا يستطيع، وفي يوم آخر يريد السهر لإنجاز بعض أعماله فيغلبه النوم.

نريد الشمس ساطعة غدًا ونحن نتنزه فتمتلئ السماء بالغيوم.

نريد تذكر شيء ما فلا نستطيع...

وغيرها من صور القهر الإلهي العديدة التي تمر علينا جميعًا لتشعرنا بعجزنا التام.

الجهل

من طبيعة الإنسان الجهل بعواقب الأمور: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

والرســائل التي تذكر الإنســان بحقيقة جهله كثيرة، ولا يكاد يمر يوم إلا وفيه بعض منها.

مثــال ذلك: الحوادث التي تمر بالعبد وكأنها تقول لــه: لو كنت تعلم الغيب ما فعلت ذلك.

فمن يأكل طعامًا ثم يتعب منه أو يصاب بالتسمم، لو كان يعلم الغيب ما أكله.

والذي يشترى ثوبًا فيجده صغيرًا عليه، يكشف له مدى جهله بعواقب الأمور.

وكذلك الطالب الذي يذاكر موضوعًا معينًا ويركز فيه جهده، ثم لا يجده أمامه في الامتحان...

فالتوقف عند هذه الأشــياء، وتتبعها يُرسِّــخ في نفس الإنســان حقيقة جهله، ويدفعه دومًا لاستخارة ربه في كل شيء.

الفقير المحتاج

لو تفكرنا في طبيعة الإنســان والأشياء التي يحتاجها لقيام حياته، والأشياء التي يملكها ولا يحتاج إلى أحد فيها، لوجدنا أنه يحتاج أشــياء لا تعد ولا تحصى، وأنه فقير فقرًا ذاتيًّا ومطلقًا.

فالواحد منا يحتاج دومًا إلى الهواء والأكسجين وإلا هلك اختناقًا.

ويحتاج إلى الماء وإلا مات عطشًا.

ويحتاج إلى الطعام وإلا مات جوعًا.

ويحتاج إلى النوم ليرتاح وإلا فقد اتزانه.

ويحتاج إلى حفظ ضربات قلبه، وجريان دمه.

ويحتاج إلى الدواب لتحمله، والشجر ليظلله.

ويحتاج إلى إعانة لفعل الطاعة.

ويحتاج إلى عصمة من فعل المعصية.

ويحتاج...

معنى ذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ لو تخلى عن الإنسان وعن إمداده باحتياجاته لهلك، ولصار من أهل الفجور، ولتخطفته الشياطين.

فكيف لنا أن نوقن بهذه الحقيقة؟!

الحل في الدواء الرباني: رسائل المنع الإلهية.

فعندما يزداد خفقان قلبك، عليك أن تتذكر مدى فقرك إلى الله في حفظ وتعهد هذا القلب، وعندما يدخل رمش في عينك، عليك بتذكر مدى حاجتك إلى الله في حفظ رموشك.

وعندما يزداد ضغط الدم، أو يصاب أحدنا بالصداع أو آلام في البطن أو الصدر، عليه أن يتذكر مدى احتياجه إلى الله في حفظ أعضائه وأجهزته: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٦].

عند جدب السماء وانقطاع الماء، ماذا علينا أن نتذكر؟!

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الملك: ٣٠].

وعندما يُحال بينك وبين الطاعة، عليك أن تتذكر مدى احتياجك لإعانة الله لك في كل طاعة: ﴿ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ﴾ [سبأ: ٥٠].

الرسائل الإلهية

إذن فأهم وسيلة لمعرفة حقيقة الإنسان: حسن التعامل مع رسائل المنع التي تصله من الله بصفة يومية.

فالمرض -على سبيل المثال- يحمل رسالة تقول لكل منا:

أنت ضعيف لم تستطع مقاومتي.

أنت عاجز لا تستطيع شفاء نفسك ودفع الضر عنها.

أنت جاهل لم تعرف أنك ستمرض في هذا الوقت.

أنت فقير إلى الله في دفع هذا المرض، ودوام حفظ عافيتك.

رسالة الأرق

أنت ضعيف أمام الأرق.

عاجز لا تستطيع جلب النوم.

جاهل لا تعرف متى ستنام وإلا لذهبت إلى الفراش في هذا الوقت.

فقير إلى الله في جلب النوم، وحفظك وأنت نائم.

من هنا تتضح لنا أهمية تتبع مواضع المنع، والتفكر فيها وما تحمله من الدلالات التي من شأنها أن تعرفنا بحقيقتنا ومدى احتياجنا إلى مولانا...

أوحى الله إلى بعض أنبيائه: «**أَدْرِكْ لِي لَطِيفَ الْفِطْنَةِ، وَخَفِيَّ اللُّطْفِ فَإِنِّي أُحِبُّ ذَلِكَ قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَا لَطِيفُ الْفِطْنَةِ؟ قَالَ: إِنْ وَقَعَتْ عَلَيْكَ ذُبَابَةٌ فَاعْلَمْ أَنِّي أَنَا أَوْقَعْتُهَا عَلَيْكَ، فَاسْأَلْنِي رَفْعَهَا. قَالَ: وَمَا خَفِيُّ اللُّطْفِ؟ قَالَ: إِذَا أَتَتْكَ حَبَّةٌ فَاعْلَمْ أَنِّي أَنَا ذَكَرْتُكَ بِهَا**»(١).

وحبذا لو تم ربط التفكر في هذه الآيات والرسائل الإلهية بالإكثار من ذكر (**لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**)، وكذلك كثرة مناجاة الله، والتعبير عن حالة الضعف والعجز والجهل وعظيم الاحتياج إليه، وأنه لا غنى لنا عنه، ولا قيمة لنا بدونه.

كان عيسى ابن مريم يقول: «اللهم إنى أصبحت لا أملك ما أرجو، ولا أستطيع دفع ما أحاذر، وأصبح الأمر بيد غيري، وأصبحت مرتهنًا بعملي، ولا فقير أفقر مني»(٢).

طبيعة النفس

ومع كون الإنسان ضعيفًا وعاجزًا وجاهلًا وفقيرًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ فقرًا مطلقًا وذاتيًّا، فإن لنفسه طبيعة تتنافى مع هذه الصفات.

فهي نفس شحيحة تحب الاستئثار بكل خير: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

لديها قابلية للطغيان والفجور: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ١١﴾ [الشمس: ١١].

تحب العلو والتميز عن الآخرين.

---

(١) ذكره ابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ٥٤).

(٢) الزهد للإمام أحمد (برقم: ٤٩١).

ترغب دومًا في الراحة، وتكره المشاق والتكاليف.

تريد شـــهوتها وحظها من كل فعل يقوم به العبد -وإن كان فيه حتفها- فهي لا تنظر إلى العواقب.

يقول المحاسبي: إن النفس لو تُركت لما فعلت أي طاعة، وما تركت أي معصية.

لماذا؟!

لأن محبتها في خلاف ذلك؛ فالعبد لا يكاد يأتي برًّا إلا وشهوة نفسه في ضده[١].

ألم يســتعذ من شرها رســولنا ﷺ بقوله: «**وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُــرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا**»؟[٢]

وقال ﷺ لحصين بن المنذر: «**قُلِ اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَقِنِي شَرَّ نَفْسِي**»[٣].

مقت النفس

فالنفس -كما يقول الآجري- أهل أن تُمقت في الله.

لأنها تدعوني لسلوك سبيل الضلال.

---

(١) الرعاية لحقوق الله (ص: ٤٣٥).

(٢) رواه أحمد (٤/ ٤٧٧ برقم: ٢٧٤٩)، ومسلم كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٢/ ٥٩٣ برقم: ٨٦٨) وابن حبان (١٤/ ٥٢٧ برقم: ٦٥٦٨)، وابن ماجة (١/ ٦١٠ برقم: ١٨٩٣) كتاب النكاح، باب خطبة النكاح.

(٣) رواه الترمذي (٥/ ٥١٩ برقم: ٣٤٨٣)، وقال: حديث حسن غريب، وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٨١) والحاكم: (١/ ٦٩١) وصححه على شرط الشيخين ووافقه ابن القيم في الوابل الصيب (ص: ١٩٩)، وصحح إسناده ابن حجر في الإصابة (١/ ٣٣٧).

وتصرفني عما يرضي الله، وتوقعني فيما يبغضه[١].

«فالحمد لله وحده والذم لها، والحذر والخوف منها، وترك الطمأنينة إليها لمعرفتك بها، فمن عرف نفسه زال عنه العُجب، وعظَّم شكر الرب عَزَّوَجَلَّ، واشتد حذره منها، والثقة والطمأنينة إلى المولى عَزَّوَجَلَّ، والمقت لها، والحب للمتفضل المنعم».

وتذكر: لو كان لك صاحبان حولك وأنت نائم، فأراد أحدهما أن يقتلك ومنعه الآخر فماذا ستكون مشاعرك نحوهما؟!

فكم من بلية قد أرادتها بك نفسك فعزم الله عَزَّوَجَلَّ أن تتركها وأيقظك وأزال عنك غفلتك فعصمك منها.

وكم من حق الله هممت بتضييعه، فأبى الله عَزَّوَجَلَّ إلا أن يوفقك لخلاف ما هممت به.

فقد وجب عليك المقت لنفسك، والحذر منها، وترك إضافة العمل إليها، بل تحمده وحده بكل ما نلت من بر وطاعة[٢].

كيف كان الصالحون ينظرون إلى أنفسهم؟

يقول ابن القيم: ومقت النفس في ذات الله من صفات الصديقين، ويدنو العبد به من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في لحظة واحدة أضعاف ما يدنو به من العمل[٣].

(١) أدب النفوس للآجري (ص: ١٦) - مكتبة لينا - دمنهور - مصر.
(٢) الرعاية لحقوق الله للمحاسبى (ص: ٤٣٥، ٤٣٦).
(٣) إغاثة اللهفان (١/ ١٤٣).

كان أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: لو يعلم الناس ما أنا فيه لأهالوا عليَّ التراب.

ومشى قوم خلف عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال لهم: ارجعوا فإنها ذلة للتابع، وفتنة للمتبوع [١].

وقال: لو تعلمون ما أعلم من نفسي حثيتم على رأسي التراب [٢].

وهذا المَرُّوذي تلميذ الإمام أحمد بن حنبل يقول: ذُكر أمام ابن حنبل أخلاق الورعين فقال: أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن لا يمقتنا، أين نحن من هؤلاء؟![٣]

وكان رجل من بني إسرائيل له عند الله حاجة، فتعبد واجتهد ثم طلب إلى الله حاجته، فلم يـر نجاحًا، فبات مزريًا على نفسه، وقال: يا نفس، ما لك لا تقضى حاجتك، فبات محزونًا قد أزرى على نفسه، وقال: أما والله ما مِن قِبل الله أوتيت، ولكن من قبل نفسي أوتيت، فبات ليلة مزريًا على نفسه وألزم الملامة، فقُضيت حاجته[٤].

هل يمكن للنفس أن تأمر بخير؟!

يجيب عن هذا السؤال المحاسبي فيقول:

إن كون النفس أصبحت تؤدي بعض الطاعات بسهولة ويسر ليس معناه أنها تحب ذلك، بل إن قوة عزمك التي وهبك إياها المولى، والخوف من الآخرة قهرها،

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف تحقيق عوامة كتاب الأدب، باب ما يكره للرجل أن يتبع أو يجتمع عليه (١٣/ ٤١٥ برقم: ٢٦٨٣٩).

(٢) الزهد لأبي داود (١/ ١٤٤ برقم: ١٣٩).

(٣) الورع رواية المروزي عن أحمد بن حنبل.

(٤) إغاثة اللهفان (١/ ١٥٤).

ولو وجدت منك فترة لرجعت إلى أحوالها، ولرفضت الطاعة لله عَزَّوَجَلَّ.

ويضرب المحاسـبي مثالًا لذلك بالأسير الذي كان يحاول الفتك بك، فقهرته، وأسرته وصار طوع أمرك، هل تأمن له بعد ذلك؟! وهل سـيطيعك راضيًا مختارًا أم أنه ينتظر منك التفاتة لينقض عليك؟!(١)

النفس هي النفس

يؤكد الدكتور محمد سـعيد رمضان البوطي على المعنى الذي ذكره المحاسبي في أن النفس لا يمكنها أن تأمر صاحبها بخير إلا إذا كان لها مصلحة في ذلك فيقول:

النفس هي مجموعة الرغائب الشـهوانية الغريزية التي تجمح بالإنسان، وتدفعه إلى الاستجابة العملية لها.

والسلوك هو النتيجة العملية لصراع الإنسان مع مشاعره ودوافعه النفسية، فهو نتيجة تطبيقية للصراع الذي يظل دائرًا بين الفطرة الإيمانية والغريزة الحيوانية في كيان الإنسان.

فمهما صعد السـلم أو هبط في التزاماته السلوكية، فلسوف تظل نفسه التي بين جنبيه نزاعة إلى المشـتهيات التي ذكرها الله في كتابه: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وغيرها كالكبر والعُجب، والانطواء على الضغائن والأحقاد.

ولا يصـح أن يقول أحدهـم: ولكني بقيت دهرًا طويلًا أجاهـد نفسي وأمعن في

---

(١) الرعاية لحقوق الله للمحاسبي (ص: ٤٣٥، ٤٣٦).

تربيتها وترويضها، حتى استطعت أن أسمو بها عما كانت عليه من التعلق بهذه المشتهيات، والطبائع الذميمة، فهي اليوم لا ترغب إلا فيما يرضي الله، ولا تنفر إلا مما لا يرضي الله.

هل صرتَ ملكًا؟!

يجب أن يقال لصاحب هذه الدعوى: إن صح ما تقول فبشريتك قد غاصت بل غابت عنك، وتحولت إلى ملك من الملائكة الذين يجوبون في ملكوت الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا ما يخالف الوصف الذي وصف الله به الإنسان، أيًّا كان.

ألم تقرأ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ [النساء: ١٢٨]؟.

ألا ترى كيف أن الحكم جاء بهذه الصفة القبيحة على عموم الأنفس دون استثناء ولا تخصيص، وعندما أثنى على من تساموا بسلوكهم على هذه الصفة لم ينسب ذلك إلى نفوسهم، بل نسبه إلى وقاية الله لهم، مع بقاء أنفسهم على ما هي عليه، فقال: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩ ﴾ [الحشر: ٩].

مفهوم التكليف

ويستطرد البوطي في رده على من يظن أن نفسه قد صارت تأمره بفعل الخير فيقول: إن صح ما تقول، فأنت لم تعد مُكلّفًا من قبل الله بشيء؛ لأنك لن تشعر بأي كلفة فيما يأمرك به، إذ أصبحت نفسك سباقة بكامل رغبتها وسرورها إلى هذا الذي يأمرك الله به. ولا بد أن يصبح أمره عندئذٍ عبثًا، وثوابك عليه باطلًا. ولكن أمر الله عَزَّوَجَلَّ نافذ وسيظل نافذًا في حق عباده أجمعين، وثوابه جارٍ ومهيأ لجميع المحسنين، ولا يكون ذلك إلا لأنهم مكلفون، ولا يكونون مكلفين إلا عندما تكون التكاليف الإلهية مخالفة لرغبات نفوسهم، متشاكسة مع تطلعاتها وأهوائها.

وإن جميع الربانيين من عباد الله الصالحين، وأوليائه المقربين، ظلوا في جهاد دائب مع أنفسهم حتى أتاهم اليقين الذي نقلهم إلى رحاب مولاهم الجليل.

وإنما كان مصدر الأجر الذي وعدهم الله به وادخره لهم: مخالفتهم الدائبة لأهواء نفوسهم، وتطلعاتهم الشهوانية.

إذن فالنفس البشرية تظل نزاعة إلى شهواتها وأهوائها ما دامت باقية.

ما أقبح الرضا عن النفس!

ويقول البوطي: فإذا كان الإنسان راضيًا عن نفسه، فليس يعني رضاه عنها إلا انقياده لما تحبه وتدعو إليه، ولا بد أن تورده عندئذٍ المهالك، وأول هذه المهالك إعجابه بنفسه الأمارة بالسوء، وادعاؤه أنها مزكاة من النقائص، متسامية على الرذائل والقبائح من الطباع، وهو نقيض ما قد أمر الله به، أو نهي عنه، إذ قال:

﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢ ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال سبحانه:

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٤٩ ﴾ [النساء: ٤٩].

والاستفهام في الآية استنكاري، أي: ألا ترى إلى قباحة شأنهم إذ يمدحون أنفسهم، ويعبرون عن إعجابهم بها ورضاهم عنها؟![١]

إذن فسنظل في جهاد مع أنفسنا حتى الموت، وكما قال أحد الصالحين: يموت المؤمن وسيفه يقطر دمًا.

(١) شرح الحكم العطائية لمحمد سعيد رمضان البوطي (٢/ ٦٩ - ٧٣) بتصرف.

كيف نتعامل مع أنفسنا؟

مـــن هنا يتضح لنا -كما يقول الماوردي-: أنه لا بد من تأديب النفس، فإن أغفل تأديبها تفويضًا إلى العقل، أو توكلًا على أن تنقاد إلى الأحسن بالطبع: أعدمه التفويض درك المجتهدين، وأعقبه التوكل ندم الخائبين[١].

وأُولى مقدمات أدب رياضة النفس ومجاهدتها

أن لا يسبق إلى حسن الظن بنفسه، فيخفى عليه مذموم شيمه، ومساوئ أخلاقه؛ لأن النفس بالشهوات آمرة، وعن الرشد زاجرة[٢].

فإن كان الأمر كذلك فلا بد إذن من القيام بمثل هذه الأعمال:

- سوء الظن الدائم بالنفس ودوام الحذر منها.
- إلجامها بلجام الخوف لتسهل قيادتها.
- مقاومة إلحاحها للإعجاب بها.
- محاسبتها.
- دوام التوبة.

سوء الظن بالنفس

فعلينا ألا نركن لأنفســـنا أو نحسن الظن بها، فهي لن تأمرنا بخير، ولتأكيد هذا المعنى: علينـــا بتتبع خواطر النفـــس وحديثها لنا بتضييع أو تأخـــير القيام بحق من

(١) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٢٦).
(٢) المصدر السابق (ص: ٢٢٩).

الحقوق، وكذلك ارتكاب معصية من المعاصي. فلهذا الأمر دور كبير في معرفة النفس ودوام الحذر منها.

ألا تذكر كم من مرة حدثتك نفسك بعدم الاستيقاظ لصلاة الفجر طلبًا للراحة؟

وألا تذكر كذلك كم من مرة جعلتك نفسك تطلق بصرك فيما حُرِّم عليك؟!

ومن الأمور المعينة على دوام الحذر من النفس: تتبع هذا الموضوع في القرآن لنرى كيف فعلت النفس بمن سبقنا كإخوة يوسف، وامرأة العزيز، والسامري، وثمود، وفرعون...

الخوف من الله

كما أن للنفس قابلية للفجور والطغيان، فلها كذلك قابلية للسكون والحذر كما قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾ [الشمس: ٧، ٨].

والنفس -كما يقول الآجري: إذا أُطمعت طمعت، وإذا آيستها أيست، وإذا أقنعتها قنعت، وإذا أرخيت لها طغت، وإذا فوضت لها أساءت، وإذا حملتها على أمر الله صلحت[1].

وأفضل لجام تساق به النفس: لجام الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١ ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

ووسائل استجلاب الخوف من الله كثيرة يقف على رأسها كثرة ذكر الموت، وتذكر الآخرة وزيارة المقابر، وكتابة الوصية، وشراء الكفن، والاستماع إلى المواعظ، والقراءة في كتب الرقائق.

---

(١) أدب النفوس (ص: ٢٥، ٢٦) باختصار.

مقاومة خواطر العُجب

ستظل النفس -أي نفس- تلح على صاحبها بحمدها والإعجاب بها عند كل موقف إيجابي يقوم به، أو كلمة طيبة تخرج من فمه... فعلينا أن لا نسترسل مع تلك الخواطر، وأن نقاومها غاية جهدنا، وألا نسكن إليها لما في ذلك من خطورة.

ومما يعين على هذه المقاومة تذكيرها بعواقب العُجب من مقت الله وغضبه وإحباطه للعمل.

قال السري: لو أن رجلًا دخل بستانًا فيه من جميع خلق الله من الأشجار والأطيار، فخاطبه كل طائر بلغته، وقال: السلام عليكم يا ولي الله فسكنت نفسه إلى ذلك، كان في أيديها أسيرًا[1].

ومن الوسائل المعينة على ذلك أيضًا: الإنفاق مما نحب من مال وغيره كلما ضعفنا أمام إلحاحها.

محاسبة النفس

لمحاسبة النفس مجالات كثيرة، تشمل كل ما أمرنا الله به أو نهانا عنه، والذي يعنينا في موضوع علاج العُجب: محاسبة النفس على الوفاء بحق الله كعلاج أكيد للتخلص من هذا الداء.

يقول ابن القيم: ومما ينفي عن العبد العُجب ورؤية عمله: النظر في حق مولاه عليه أولًا، ثم نظره: هل قام به كما ينبغي ثانيًا.

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي نقلًا عن العجب لعمر بن موسى الحافظ (ص: ٧٥).

فمن عرف الله وحقه وما ينبغي لعظمته من العبودية: تلاشت حسناته عنده، وصغرت جدًّا في عينه، وعلم أنها ليست مما ينجو بها من عذابه، وأن الذي يليق بعزته ويصلح له من العبودية أمر آخر(١).

تأمل حال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد نظر إلى حق ربه أولًا قبل أن ينظر إلى عمله، فقال: يارب كيف لي أن أشكرك، وأصغر نعمة وضعتها عندي من نعمك، لا يجازي بها عملي كله، فأتاه الوحي: يا موسى الآن شكرتني(٢).

والذي يعين على هذه المحاسبة هو التفكر في النعم، والعمل على إحصائها -كما سبق بيانه، ومن أهم جوانب النعم الذي ينبغي التفكر فيها عند القيام بهذه المحاسبة: نِعم الاجتباء وسبق الفضل من الله عَزَّوَجَلَّ للعبد.

دوام التوبة

التوبة هي النتيجة الطبيعية للمحاسبة الناجحة، التي نظر صاحبها إلى حق الله وعدم قدرته على الوفاء به، فيهرع إلى مولاه يطلب منه المسامحة والعفو. وكلما ازددنا معرفة بحقه سبحانه، وشهدنا تقصيرنا في أدائه، عظمت توبتنا، واشتد خوفنا وازدراؤنا لأنفسنا.

وهذا ما يوضح سبب خوف الصحابة والسلف الشديد مع شدة اجتهادهم.

فهذا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: ليتني خضرة تأكلني الدواب(٣).

---

(١) تهذيب مدراج السالكين.

(٢) أحمد في الزهد (ص: ٦٧) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ٥٦) والبيهقي في شعب الإيمان (برقم: ٤١٠١) وابن أبي الدنيا في الشكر (برقم: ٦١).

(٣) المتمنين لابن أبي الدنيا (١/ ٢٦ برقم: ١١) ورواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ١٩٢).

وهذا ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَصَّر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل وفعل، فقال عمر: وددت أني أنجو، لا أجر ولا وزر(١).

وقال عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو أنني بين الجنة والنار ولا أدري إلى أيتهما يؤمر بي، لاخترت أن أكون رمادًا، قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير(٢).

وقال رجل عند عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين، أكون من المقربين أحب إليّ، فقال عبد الله: لكن ههنا رجل ودَّ أنه إذا مات لم يُبعث. يعني نفسه(٣).

الخلاصة: من هنا يتضح لنا أن من أهم وسائل استصغار النفس ورؤية العمل بعين النقص: معرفة الله ومعرفة النفس.

يقول ابن القيم: من تمكن من قلبه شهود الأسماء والصفات، وصَفا له علمه وحاله، اندرج عمله جميعه، وأضعاف أضعافه في حق ربه تعالى، ورآه في جنب حقه أقل من خردلة بالنسبة إلى جبال الدنيا، فيسقط من قلبه اقتضاء حظه من المجازاة عليه لاحتقاره له، وقلته عنده، وصغره في عينه(٤).

ويلخص الدبوسي أهمية معرفة الله، ومعرفة النفس في علاج العُجب فيقول: والنجاة من العُجب عزيزة، فالنفس مُدَّعية للملك والإمرة والإحسان والقدرة. ما ترجع إلا بالرجوع إلى معرفة عجزها وافتقارها، وبالوقوف على أسرارها، ومعرفة

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (برقم: ٦٥٩).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٦٠).

(٣) حلية الأولياء (١/ ١٣٣).

(٤) مدارج السالكين.

قدرة خالقها ومنته عليها في جميع طرائقها.

قل وردِّد بالله أستعين، وبه أعوذ، وإياه أستهدي، وإليه ألوذ، تبارك من مُقدّر لا يتحرك العبد ولا يسكن ولا يتكلم ولا يسكت إلا بنعمة من الله جديدة مضمومة إلى منة قديمة. فلله الحمد سرمدًا، والشكر متواليًا أبدًا[١].

• • •

(١) الأمد الأقصى (ص: ١٥٦).

الفصل الرابع

تكلــف التواضـــــع

- مفهوم التواضع.
- ضرورة التواضع.
- التواضع علم وعمل.
- صور وأعمال التواضع:
  - مع الله.
  - مع النفس.
  - مع الناس.

تكلف التواضع

مفهوم التواضع

كما أن التكبر هو أن يكون المرء عند نفســه كبيرًا، فيظهــر ذلك في تعاملاته مع الآخرين، فإن التواضع عكس ذلك: أي أن تكون عند نفســك صغيرًا، وأن تترجم تعاملاتك مع الآخرين هذه الحقيقة. فالتواضع إذن حالة قلبية يعيشها العبد مع نفسه وتظهر آثارها في سلوكه.

قال أبو سليمان: لا يتواضع عبد حتى يعرف نفسه[١].

وقال الحســن: التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلمًا إلا رأيت له عليك فضلًا[٢].

وقيــل لأبي يزيــد: متى يكــون الرجــل متواضعًــا؟ فقــال: إذا لم ير لنفســه مقامًا ولا حــالًا، ولا يــرى أن في الخلــق مــن هــو شر منه. فمن يرى لنفســه قيمــة فليس له مــن التواضــع نصيــب، وتواضــع كل إنســان على قــدر معرفتــه بربــه عَزَّوَجَلَّ ومعرفته بنفسه[٣].

(١) إحياء علوم الدين، كتاب ذم الكبر والعجب.

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٥٢٩).

(٣) المصدر السابق (٣/ ٥٣٠).

ويؤكد الإمام الشافعي على نفس المعنى فيقول: أرفع الناس قدرًا من لا يرى قدره، وأكثرهم فضلًا من لا يرى فضله[١].

ضرورة التواضع

يقول المحاسبي: اعلم أن الكبر لا يليق إلا بالله عَزَّوَجَلَّ وحده، وأن العبد إذا تكبر صار ممقوتًا عند الله، وقد أحب الله منه أن يتواضع، وقال له: إن لك عندي قدرًا مالم تر لنفسك قدرًا، فإن رأيت لنفسك قدرًا، فلا قدر لك عندي، فمن عقل ذلك: فلا بد وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه، وهذا يزيل الكبر والعُجب من قلبه، وإن كان يرى نفسه مقصرًا[٢].

فبمثل هذا زال التكبر عن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ إذ علموا أنه من نازع الله تعالى رداء الكبر قصمه.

وقد أمرهم الله أن يصغروا في أنفسهم حتى يعظم عند الله محلهم، فهذا أيضًا مما يبعث على التواضع لا محالة.

قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»**[٣].

التواضع علم وعمل

فإن كانت حقيقة التواضع هي أن يرى العبد نفسه صغيرًا، فإن هذا المفهوم يحتاج إلى عمل يُرسِّخ مدلوله في القلب، ويُعمِّق معناه في النفس، وهذا هو ما أشار

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٩٩).

(٢) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين (ص: ٢٥١).

(٣) رواه مسلم (٤/ ٢١٩٨ برقم: ٢٨٦٥).

إليه أبو حامد الغزالي بقوله: لا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل(١).

وتجدر الإشــارة إلى أن تكلف المرء لأفعال المتواضعــين دون أن يكون منطلقها هذه الحالة القلبية من اســتصغار النفس قد يــؤدي إلى عكس المطلوب، فيكون هذا التواضع الظاهري سببًا لزيادة إعجاب المرء بنفسه واستعظامه لها، فيعجب بتواضعه، ويظن أن عنده شيئًا ليس عند غيره.

قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: رأس التواضــع أن ترضى بالدون من المجالس، لا لحظ نفســك، فقد يجلس أحدهم عند النعال ومعه من الكبر ما الله به عليم، وما حمله على مجلسه ذلك إلا ليقال: إنه متواضع(٢).

من هنا يتضح لنا أن اســتخدام هذه الوســيلة في العلاج ينبغــي أن تكون بعد اســتخدام الوســائل الســابقة، التي تضع في القلب بذرة معرفة العبد بربه ومعرفته بنفسه، ليأتي التواضع بعد ذلك فينميها ويزيدها رسوخًا وعظمًا.

صور وأعمال التواضع

للتواضــع صــور كثـيرة منشـؤها استصغار المرء لنفسـه. هـذه الصورة تشـمل كل العلائـق: سـواء أكانـت علاقـة العبـد بربـه، أم علاقتـه بنفسـه، أم علاقتـه بالآخرين.

---

(١) إحياء علوم الدين: (٣/ ٥٥٨).

(٢) صلاح الأمة في علو الهمة: (٥/ ٤٥٢).

مع الله

تواضع العبد في علاقته مع ربـــه، ومعاملته له تنطلق من رؤيته لحقيقته وأصله، وأنه مخلوق عاجز، ضعيف، جاهل... أصله هو التراب والماء المهين.

وتنطلق معاملة العبد لربه كذلك من استشـــعاره لعظمته -ســـبحانه- وجلاله وكماله، وعظيم فضله عليه، وأنه لا غنى له عنه طرفة عين.

هذه الحالة القلبية ينبغي أن يترجمها العبد في صورة تذلل ومســـكنة وخضوع لله عَزَّوَجَلَّ، وإظهار عظيم افتقاره وحاجته إليه، وأنه مهما أوتي من أشكال الصحة والقوة والجمال والجاه والمال فهو كما هو، عبد ذليل لرب جليل، وأن هذه الأشياء لم تغير من حقيقته شيئًا.

وهذا ما كان يفعله رســـولنا ﷺ وصحابته الكرام، ومن تبعهم بإحسان. كانوا يظهرون خضوعهم وانكسارهم لربهم كلما ازدادوا رفعة في الدنيا.

فهذا رســـولنا ﷺ يدخل مكة فاتحًا بعد أن أخرجه منهـــا أهلها. فماذا كان حاله وقت دخوله؟!

أقبـــل ﷺ حتى وقف بذي طوى، وهو معتجر ببرد حـــبرة. فلما اجتمعت عليه خيولـــه، ورأى ما أكرمه الله به، تواضـــع لله حتى إن عثنونه (ذقنه) لتمس واســـطة رحله[1].

(١) الزهد لابن مبارك (ص: ٥٣) في زيادات نعيم بن حماد.

وهــذا النجاشي يلبس ملابس رثــة، ويجلس على التراب بعــد أن بلغه انتصار المســلمين في بدر، فقال له جعفر بن أبى طالب رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: ما بالك تجلس على التراب ليس تحتك بســاط وعليك هــذه الأخلاق؟ قال: إنما نجد فيما أنزل الله على عيســى عَلَيهِٱلسَّلَامُ: إن حقًّــا على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعًا عندما أحدث لهم من نعمة، فلما أحدث الله نصر نبيه، أحدثت هذا التواضع[١].

وأخرج ابن أبى حاتم، عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا رَفَعَ سُلَيْمَانُ** عَلَيهِٱلسَّلَامُ **رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ تَخَشُّعًا؛ حَيْثُ أَعْطَاهُ اللهُ مَا أَعْطَاهُ**»[٢].

كيف دخل عمر بن الخطاب بيت المقدس؟!:

وهذا عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنهُ يدخل بيت المقدس فاتحًا. فماذا كان حاله؟!

كان بينه وبين الغلام الذي معه مناوبة، فلما قرب من الشــام كانت نوبة ركوب الغلام، فركب الغلام وأخذ عمر بزمام الناقة فاســتقبله الماء في الطريق، فجعل عمر يخــوض في الماء، ونعله تحت إبطه اليسرى، وهو آخــذ بزمام الناقة، فخرج أبو عبيدة وكان أميرًا على الشــام، وقال: يا أمير المؤمنين، إن عظماء الشــام يخرجون إليك، فلا يحســن أن يروك على هذا الحال، فقال عمر: إنما أعزنا الله بالإسلام، فلا نبالي بمقالة الناس[٣].

---

(١) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا (برقم: ٩٢)، والزهد لابن المبارك من زيادات نعيم بن حماد (٢/ ٥٣).

(٢) عزاه إليه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ١٨٩)، ورواه ابن المبارك (٢/ ٤٧) من زيادات نعيم بن حماد والأصفهاني مرفوعًا في حلية الأولياء (١٠/ ١٢٨).

(٣) تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص: ١٤١) مؤسسة التاريخ العربي، بيروت.

وعنـــد موته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لابنه عبد الله: اطرح وجهي يــا بني بالأرض لعل الله يرحمني. قال: فمسح خديه بالتراب[١].

ألا تــرى في هذا الموقف مدى تذلل عمر وانكســاره لربه، وهو يمســح خديه بالتراب، وكيف كانت آماله كلها متعلقة برحمته سبحانه؟!

وعلى نفس الدرب ســار عمــر بن عبد العزيــز الذي ما كان يســجد إلا على التراب[٢]. وكان يلبس ثيابًا عجيبة عند قيامه الليل!

عن عبد الرحمن بن زيد بن أســلم قال: كان لعمر بن عبد العزيز سَــفَط[٣]، فيه دراعة (نوع من الثياب) من شــعر وغُل، وكان لــه بيت في جوف بيت، يصلي فيه لا يدخل فيه أحد، فإذا كان في آخر الليل، فتح ذلك السفط ولبس تلك الدرعة، ووضع الغل في عنقه، فلا يزال يناجي ربه ويبكي حتى يطلع الفجر، ثم يعيده إلى السفط[٤].

التواضع عند الرِّفعة

إذن فعندما نبتلى بمنصــب أو جاه بين الناس علينا أن نكثر من أعمال التواضع؛ لأن النفس في هذه الحالة تريد أن تشــمخ وتخلع جلباب العبودية، وتلبس لباس التيه والفخر، وبالمبالغة في التواضع تعود إلى أصلها.

انظر إلى أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد استمر في حلب الأغنام لجيرانه بعد توليه الخلافــة، ويقول لهم بعد أن ظنوا أنه لن يســتمر في ذلك: بل لعمري لأحلبنَّها لكم،

---

(١) الزهد لابن المبارك (ص: ١٤٦).

(٢) الرسالة القشيرية (ص: ١٤٦) دار الخير – بيروت.

(٣) السفَط شيء يشبه الجوالق يعبأ فيه.

(٤) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص: ٢٣٥) – دار مكتبة الهلال – بيروت.

وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه، فاستمر يحلب لهم[(١)].

ولما بعث عمر أبـا هريرة أميرًا للبحرين دخلها وهـو راكب على حمار، وجعل يقول: طرِّقوا للأمير، طرِّقوا للأمير[(٢)].

ورئـي عثمان بن عفان على بغلة، وخلفه عليها غلامـه نائل وهو خليفة، ورئي كذلك نائمًا في المسجد في ملحفة ليس حوله أحد وهو أمير المؤمنين[(٣)].

قال أيوب السختياني: ينبغي للعالم أن يضع الرماد على رأسه تواضعًا لله عَزَّوَجَلَّ[(٤)].

ويحكي ابن الحاج في المدخل عن الشـيخ الزيات -الـذي كان من أكابر العلماء الصلحـاء في وقته ببلاد المغـرب- أنه كان إذا جلس إلى الـدرس يجتمع له نحو من أربعمائة أو سـتمائة من الفقهـاء يحضرون إليه، فإذا فرغ من مجلسـه قام ودخل بيته، وأخرج ما يحتاج إليه على رأسه أو في يده من قمح أو عجين يخبزه، أو شراء خضرة أو حاجة من السـوق، أو حصـاد لزرعه بيده، أو غسـل ثيـاب... إلى غير ذلك من الحوائج[(٥)].

التواضع عند ورود النعم

ومن المواضع التي يتأكد عندها التواضع لله عَزَّوَجَلَّ: ورود النعم.

قال كعب: ما أنعم الله على عبد من نعمة من الدنيا فشكرها لله، وتواضع بها لله،

---

(١) سير السلف الصالحين للأصبهاني: (١/ ٨٣) - دار الراية - الرياض.

(٢) تنبيه الغافلين (ص: ١٤٢).

(٣) الزهد للإمام أحمد (ص: ١٢٧).

(٤) أخلاق العلماء للآجري (ص: ٦٤).

(٥) المدخل لابن الحاج (٢/ ٣١٩).

إلا أعطــاه الله نفعها في الدنيا، ورفع له بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشــكرها لله، ولم يتواضع بها لله، إلا منعه الله نفعها في الدنيا، وفتح له طبقًا من النار يعذبه إن شاء، أو يتجاوز عنه[١].

ومن صورالتواضع لله: كثرة السجود

مـن أجَـلِّ صـور التواضـع لله: السـجود، فمـن خلالـه يكـون العبـد في وضع يظهـره بمظهـر الذليـل، المنكسر، المسـتكين، وهـذا ما يريـده الله عَزَّوَجَلَّ منـه، من هنا يتبـين لنـا قـول رسـول الله ﷺ: «**أَقْـرَبُ مَـا يَكُـونُ الْعَبْـدُ مِـنْ رَبِّـهِ وَهُـوَ سَـاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**»[٢].

فلنكثر من السجود، ولنظهر فيه انكسارنا واستكانتنا وخضوعنا لمولانا.

قال طاووس: دخل علي بن الحسين الحجر ليلة فصلى، فسمعته يقول في سجوده: عُبَيدك بفنائك، ومسكينك بفنائك، فقيرك بفنائك، سائلك بفنائك[٣].

إظهار المسكنة في الدعاء

إظهار المســكنة في الدعاء صورة من صور تواضع العبد لربه.. أخرج الطبراني من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: رأيــت النبي ﷺ يدعو بعرفة، ويداه إلى صدره كاستطعام المسكين[٤].

وفى حديثـه أيضًـا أن النبـي ﷺ قال في دعائه عشـية عرفة: «**أَنَـا الْبَائِـسُ الْفَقِيرُ،**

(١) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ٧٢).
(٢) رواه مسلم (١/ ٣٥٠ برقم: ٤٨٢).
(٣) الجامع المنتخب من رسائل ابن رجب، رسالة اختيار الأولى (ص: ٩٩).
(٤) رواه الطبراني في الأوسط (٣/ ١٨٩) ورواه الفاكهي في أخبار مكة (٤/ ٣٢٠).

الْمُسْتَغِيثُ، الْمُسْتَجِيرُ، الْوَجِلُ، الْمُشْفِقُ، الْمُقِرُّ، الْمُعْتَرِفُ بِذَنْبِهِ، أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْمِسْكِينِ، وَأَبْتَهِلُ إِلَيْكَ ابْتِهَالَ الْمُذْنِبِ الذَّلِيلِ، وَأَدْعُوكَ دُعَاءَ الْخَائِفِ الضَّرِيرِ، مَنْ خَضَعَتْ لَكَ رَقَبَتُهُ، وَفَاضَتْ لَكَ عَيْنَاهُ، وَذَلَّ جَسَدُهُ، وَرَغِمَ لَكَ أَنْفُهُ»[١].

التواضع عند الشدة والكرب

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ٧٦ ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

فذم -سبحانه- من لا يستكين لربه عند الشدة.

فمع ضرورة استكانة قلب المؤمن لربه وخشوعه له وإظهاره الفقر والمسكنة إليه في كل أحواله، إلا أن هذه الحالة ينبغي أن تتأكد عند الشدة والكرب.

فهذا رسولنا ﷺ يخرج عند الاستسقاء متواضعًا، متخشعًا متمسكنًا متبذلًا[٢].

وحبس لمطرف بن عبد الله قريب له، فلبس خلقان ثيابه، وأخذ بيده قصبة وقال: أتمسكن لربي لعله يشفعني فيه[٣].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١١/ ١٧٤-١٧٥ برقم: ١١٤٠٥)، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٦/ ١٦٣).

(٢) رواه ابن أبى شيبة (٧/ ٣١٤ برقم: ٣٦٤٢٨) والترمذي (١/ ٦٩٥ برقم: ٥٥٨) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) الجامع المنتخب من رسائل ابن رجب رسالة اختيار الأولى (ص: ٩٨).

مع النفس

حقيقة التواضع مع النفس هو استصغار المرء لها، ورؤيتها بعين النقص، كحال موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما استصغر نفسه، واستكثر أن يتحمل الرسالة بمفرده: ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص: ٣٤]، مع أن الواقع يدل على أنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد قام بها على خير وجه.

وهذا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول في دعائه: ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٢]، قال الشوكاني: وإنما قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذلك هضمًا لنفسه[1].

وتأمل ما قاله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في مناجاته لربه: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف: ١٠١]، وكانت أحب كلمة تقال لعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: كان هذا المسكين[2].

وكذلك كان رسولنا ﷺ، يقول القاضي عياض: وحسبك أنه خُيِّرَ بين أن يكون نبيًّا ملكًا أو نبيًّا عبدًا، فاختار أن يكون نبيًّا عبدًا، فقال له إسرافيل عند ذلك: فإن الله قد أعطاك بما تواضعت له أنك سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من تنشق الأرض عنه، وأول شافع[3].

---

(١) فتح القدير (٤/ ١٢٢).

(٢) الزهد للإمام أحمد (ص: ٩٤).

(٣) الشفا للقاضي عياض (١/ ١٠٥).

ومن صور تواضعه مع نفسه قوله ﷺ: «**رَحِمَ اللهُ أَخِي يُوسُفَ لَوْ أَنَا أَتَانِي الرَّسُولُ بَعْدَ طُولِ الْحَبْسِ لَأَسْرَعْتُ الإِجَابَةَ حِينَ قَالَ:** ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾ [يوسف: ٥٠]» (١).

ولقد جيء إليه ﷺ يومًا بطعام، فقالت له عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لو أكلت يا نبي الله وأنت متكئ كان أهون عليك، فأصغى بجبهته حتى كاد يمس الأرض بها وقال: «**بَلْ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَنَا جَالِسٌ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ، وَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ**»(٢).

ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة، فقال له: «**هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ**»(٣).

ضع نفسك

من أهم صور تواضع المرء عند نفسه: عدم تقديم نفسه للقيام بعمل ما، وكذلك رؤيته أنه ليس أهلًا للعمل الذي يتم ترشيحه له: كطلب الدعاء منه، أو تقديمه للإمامة في الصلاة، أو التحدث أمام الناس.

---

(١) أصل الحديث متفق عليه بلفظ: لو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي، رواه البخاري (٤/ ١٤٧ برقم: ٣٣٧٢) ومسلم (١/ ١٣٣ برقم: ١٥١) وذكره المتقي الهندي في كنز العمال(١١/ ٥١٤) بهذا اللفظ وعزاه لكتاب الزهد لأحمد بن حنبل.

(٢) رواه أبو يعلى (٨/ ٣١٨ برقم: ٤٩٢٠)، وقال الذهبي في السير (٢/ ١٩٤): حسن غريب، وقال الهيثمي في المجمع (٩ / ١٩): «رواه أبو يعلى وإسناده حسن»، ورمز له السيوطي بالحسن في الجامع الصغير، وأصل المعنى «أنه لا يأكل متكئًا» رواه البخاري كتاب الأطعمة: (٥٣٩٨، ٥٣٩٩).

(٣) رواه ابن ماجة، أبواب الأطعمة، (برقم: ٣٣١٢) وقال البوصيري في الزوائد (٤/ ١٩): هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات، والطبراني في الأوسط (٢/ ٦٤ برقم: ١٢٦٠) واللفظ له، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٦) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

فهذا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول في أول خطبة له بعد توليه الخلافة: قد وليت عليكم ولست بخيركم.(١) مع أنه خير الناس جميعًا بعد رسول الله ﷺ ولكنه استصغار النفس.

وهذا عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقال له: يا أمير المؤمنين! لو أتيت المدينة، فإن قضى الله موتًا دفنت موضع القبر الرابع، مع رسول الله ﷺ، وأبي بكر وعمر، قال: والله لأن يعذبني الله بكل عذاب، إلا النار فإنه لا صبر لي عليها، أحب إلي من أن يعلم من قلبي أني أرى أني لذلك أهل(٢).

وكان كثير من السلف يكره أن يُطلب منه الدعاء ويقول لمن يسأله: أي شيء أنا، وكتب رجل إلى الإمام أحمد يسأله فقال: إذا دعونا نحن لهذا فمن يدعو لنا(٣).

يمشون على الأرض هونًا

ومن أعمال تواضع المرء عند نفسه: عدم التبختر أو الخيلاء عند المشي، بل كما وصف الله عَزَّ وَجَلَّ عباده: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ومنها كذلك عدم التشدق أو التقعر بالكلام.

ومنها الأكل على الأرض كما كان يفعل رسول الله ﷺ، وعدم الجلوس متكئًا.

---

(١) أسنده مالك في الموطأ عن هشام بن عروة عن أبيه (١/ ١٦١) تحقيق: الأعظمي.
(٢) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص: ٢٢٧).
(٣) شرح حديث ما ذئبان جائعان لابن رجب (ص: ٦٩) مؤسسة الريان – بيروت.

ومنها تقصير الثوب، وعدم جره خيلاء، ومنها لبس الدون من الثياب في بعض الأوقات، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَرَكَ اللِّبَاسَ تَوَاضُعًا للهِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ دَعَاهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ حُلَلِ الإِيمَانِ يَلْبَسُهَا**»(١).

ولقد كان عبد الرحمن بن عوف لا يُعرف من بين عبيده(٢)، أي من تواضعه في الزي.

وهنا أمر ينبغي الإشارة إليه فيما يخص اللباس

فالكثير من الناس يحب أن يكون ملبسه حسنًا، وهيئته حسنة، وذلك بدافع فطري، وهذا أمر لا غبار عليه: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**». فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنة، قال: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**»(٣).

فالهيئة الحسنة تثير البهجة في نفس صاحبها، وتتوافق مع فطرته في حب المستحسنات، وهذا أمر محمود، أما المذموم فهو فعل ذلك مع الإعجاب بالنفس، والاختيال في المشي والشعور بالتميز بهذا الزي عن الآخرين. قال رسول الله ﷺ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ مُرَجِّلٌ رَأْسَهُ، يَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ إِذْ خَسَفَ اللهُ**

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٣٩ برقم: ١٥٦٦٩)، والترمذي (٤/ ٦٥٠ برقم: ٢٤٨١) وقال: حسن، والحاكم (٤/ ٢٠٤) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا (ص: ١٧٠).

(٣) رواه مسلم (برقم: ٩١)، وأبو داود (برقم: ٤٠٩١) في كتاب الأدب، باب ما جاء في الكبر، والترمذي: (برقم: ١٩٩٩) في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الكبر، وابن ماجة (برقم: ٤١٧٣) كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع.

بِهِ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١).

من نماذج المتواضعين

ومن نماذج المتواضعين مع نفوسهم: شيخ الإسلام ابن تيمية، يقول عنه تلميذه الإمام ابن القيم: لقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- من ذلك أمرًا لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيرًا: ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا فيَّ شيء، وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المُكَدِّي وابن المُكَدِّي وهكذا كَانَ أبي وجَدِّي

وكان إذا أُثني عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلامًا جيدًا.

وبعث إليَّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنا الفقيرُ إلى ربِّ البرياتِ أنا المسكينُ في جميعِ حالاتي
أنا الظلومُ لنفسي وهي ظالمتي والخيرُ إنْ يأتنا منْ عنده يأتي
لا أستطيعُ لنفسي جلبَ منفعةٍ ولا عنِ النفسِ لي دفعَ المضراتِ
والفقرُ لي وصفُ ذاتٍ لازمٌ أبدًا كما أن الغنى أبدًا وصفٌ له ذاتي
وهذا الحالُ حالُ الخلقِ أجمعهمْ وكلهم عندهُ عبدٌ لهُ آتي(٢)

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤/ ١٨٣ برقم: ٣٤٨٥) كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٥٤، وكتاب اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء (٧/ ٤٤ برقم: ٥٧٩٠)، ومسلم (٣/ ١٦٥٣ برقم: ٢٠٨٨). الترجيل: التسريح بالمشط، يتجلجل: أي يغوص في الأرض حين يخسف به.

(٢) تهذيب مدارج السالكين (ص: ٢٧٧).

مع الناس

التواضع مع الناس ينطلق من حقيقة أنك لست أفضل منهم مهما كانت رتبتك أو علمك أو عبادتك...

فعلى سبيل المثال: الجلوس مع المساكين ومؤاكلتهم والتحدث معهم دليل على أنك لست تفضلهم بغناك. لبس الدون من الملابس دليل على عدم أفضليتك على غيرك بملابسك.

مساعدتك لخادمك وجلوسه على مائدتك دليل كذلك على عدم شعورك بالأفضلية الذاتية عليه، وهكذا. مع العلم بأن القيام بهذه الأفعال له أثر تربوي عظيم في تأكيد معنى استصغار الواحد منا لنفسه، وعدم شعوره بالأفضلية على الآخرين.

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**»(١).

من صور وأعمال التواضع مع الناس:

■ خدمة أهل البيت

كان رسول الله ﷺ في بيته في مهنة أهله، يفلِّي ثوبه، ويحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم نفسه، ويقُمُّ البيت، ويعقل البعير، ويعلف ناضحه، ويأكل مع الخادم، ويحمل بضاعته من السوق(٢).

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢١٩٨ برقم: ٢٨٦٥).

(٢) البخاري كتاب الآذان، باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة (١/ ١٨٦ برقم: ٦٧٦)، =

■ الجلوس مع المساكين ومآكلتهم وخدمتهم

كان دواد عَلَيْهِ السَّلَامُ يدخل المسجد فينظر أغمط حلقة من بني إسرائيل يجلس إليهم، ثم يقول: مسكين بين ظهراني مساكين، وكذلك كان سليمان بن داود -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول: يارب مسكين مع المساكين[١].

■ عدم التميز بالخدمة من أجل رتبتك بين الناس

لقد كان رسولنا الحبيب ﷺ ينقل التراب مع أصحابه عند حفر الخندق في غزوة الأحزاب، وهذا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخرج في يوم حار واضعًا رداءه على رأسه، فمر به غلام على حمار، فقال: يا غلام، احملني معك. فوثب الغلام عن الحمار، وقال: اركب يا أمير المؤمنين. قال: لا، اركب وأركب خلفك، تريد أن تحملني على المكان الوطئ، وتركب أنت على الموضع الخشن؟! فركب خلف الغلام[٢].

وكان عمر بن عبد العزيز يكتب ذات ليلة شيئًا وعنده ضيف، فماد السراج ينطفئ، فقال الضيف: هل أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال: لا، ليس من الكرم استخدام الضيف، قال: هل أنبه الغلام؟ قال: لا، هي أول نومة نامها، فقام وجعل الدهن في المصباح، فقال الضيف: كيف قمت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فقال له: ذهبت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر[٣].

= كتاب النفقات - باب خدمة الرجل في أهله (٦/ ٢٣٧ برقم: ٥٣٦٣)، كتاب الأدب، باب: كيف يكون الرجل في أهله (برقم: ٦٠٣٩)، الترمذي: كتاب صفة القيامة (برقم: ٢٤٨٩) باب ٤٥ (٤/ ٦٥٤).

(١) اتحاف السادة المتقين (٨/ ٣٥٥)، الزهد للإمام أحمد، والتواضع والخمول.

(٢) ذكره الكندهلوي في حياة الصحابة (٢/ ٣٥٤).

(٣) تنبيه المغترين (ص: ٨٤١).

■ خفض الجناح للمؤمنين

عن أبى رفاعة تميم بن أسيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب، فقلت: يا رسول الله، رجل غريب جاء يســأل عن دينه لا يدري ما دينه؟ فأقبل عليّ رســول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إليّ فأتى بكرسي، فقعد عليه وجعل يعلمني مما علمه الله، ثم أتى خطبته فأتم آخرها(١).

وعــن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: إن كانت الأَمة من إماء المدينة لتأخذ بيد رســول الله ﷺ، فتنطلق به حيث شاءت حتى يقضي حاجتها(٢).

■ إجابة دعوة الفقراء والضعفاء

ولو على أقل شيء وإظهار السرور، وعدم التأفف من ذلك.

عــن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كان رســول الله ﷺ يردف خلفــه، ويضع طعامه على الأرض، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار(٣).

■ السعي في قضاء حوائج الناس، ومساعدتهم

مر عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على امرأة وهي تعصد العصيدة، فقال: ليس هكذا يعصد، ثم أخذ المسوط، فقال: هكذا، فأراها(٤).

---

(١) رواه مسلم كتاب الجمعة، باب حديث التعليم في الخطبة (٢/ ٥٩٧ برقم: ٨٧٦)، والنسائي في المجتبى السنن الصغرى، كتاب: الزينة -باب الجلوس على الكرسي (٨/ ٢٢٠) وفي الكبرى (٥/ ٥١٠ برقم: ٩٨٢٦).

(٢) البخاري (٧/ ١١٨ برقم: ٦٠٧٢) كتاب الأدب، باب: الكبر.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٣٢ برقم: ٧١٢٨) وقال: على شرط الشيخين.

(٤) رواه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٣١٤).

■ عدم الافتخار على الناس بشيء

قال يحيى بن معين: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل، صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الصلاح والخير(١).

■ عدم الجلوس في الصدارة بين الناس

بل بين عامتهم، وحيث ينتهي بك المكان. قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رأس التواضع أن تبدأ بالسلام على من لقيت من المسلمين، وأن ترضى بالدون من المجلس، وأن تكره أن تُذكَر بالبر والتقوى.

■ علينا بتعود النظر إلى الجانب الإيجابي عند الآخرين

لتستقر في نفوسنا حقيقة أن الناس جميعًا أفضل منا، فإذا نظرنا إلى من هو أصغر منا نقول: سبقناه بالذنوب، وإذا نظرنا إلى من هو أكبر منا نقول: سبقنا بالعمل الصالح، وإذا نظرنا إلى فاسق نقول: لعل في قلبه انكسارًا لله عَزَّوَجَلَّ ليس فينا فيجذبه الله نحوه، ويختم له بخير. وإذا نظرنا إلى عامي نقول: مخمول الذكر، قريب من الإخلاص، وإذا نظرنا إلى عالم قلنا: يعلم عن الله ما لا نعلم، وإذا نظرنا إلى فقير قلنا: حسابه يوم القيامة قليل... وهكذا مع الناس جميعًا.

«كَانَ عَابِدٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى صَوْمَعَتِهِ مُنْذُ سِتِّينَ سَنَةً وَإِنَّهُ أُتِيَ فِي مَنَامِهِ فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ فُلَانًا الْإِسْكَافَ خَيْرٌ مِنْكَ فَلَمَّا انْتَبَهَ قَالَ: رُؤْيَا ثُمَّ سَكَتَ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْقَائِلَةِ أَيْضًا رَأَى مِثْلَ ذَلِكَ فِي مَنَامِهِ فَلَمْ يَزَلْ يَرَى فِي مَنَامِهِ مِرَارًا حَتَّى

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ١٨١).

تبَـيَّنَ لَـهُ أَنَّهُ أَمْـرٌ فَنَزَلَ مِـنْ صَوْمَعَتِـهِ فَأَتَى الْإِسْـكَافَ فَلَـمَّا رَآهُ الْإِسْـكَافُ قَامَ مِنْ عَمَلِـهِ وَتَلَقَّـاهُ وَجَعَـلَ يَمْسَـحُ بِهِ فَقَالَ لَـهُ: مَـا أَنْزَلَكَ مِـنْ صَوْمَعَتِكَ؟ قَـالَ: أَنْتَ أَنْزَلْتَنِـي أَخْـبِرْنِي مَـا عَمَلُـكَ؟ فَكَأَنَّـهُ كَـرِهَ أَنْ يُخْبِرَهُ ثُمَّ قَـالَ: أَجَـلْ أَعْمَـلُ النَّهَارَ وَأَكْسَـبُ شَـيْئًا فَـمَا رَزَقَ اللهُ مِـنْ شَيْءٍ أَتَصَـدَّقُ بِنِصْفِـهِ وَآكُلُ مَـعَ عِيَـالِي النِّصْـفَ وَأَصُـومُ النَّهَـارَ فَانْطَلَـقَ مِـنْ عِنْـدِهِ فَلَـمَّا كَانَ بَعْـدُ أَيْضًـا قِيـلَ لِلرَّاهِـبِ: سَـلْهُ مِمَّ صُفْـرَةُ وَجْهِـكَ؟ فَأَتَـاهُ فَقَالَ: مِمَّ صُفْـرَةُ وَجْهِكَ؟ فَقَـالَ: إِنِّي رَجُلٌ لَا يَـكَادُ يُرْفَعُ لِي أَحَـدٌ إِلَّا ظَنَنْـتُ أَنَّـهُ فِي الْجَنَّةِ وَأَنَـا فِي النَّارِ وَإِنَّمَا فُضِّـلَ عَلَيَّ الرَّاهِـبُ بِإِزْرَائِهِ عَلَى نَفْسِهِ»[١].

■ لا تخبر أحـدًا بحقيقتـك، وبخاصـة إذا مـا كنـت صاحـب منصـب أو شـهرة، واتـرك الناس يعاملونـك حسـب مـا يـرون

كان سـلمان الفـارسي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أمـيرًا بالمدائـن، ومـر برجـل مـن عظمائهـا قـد اشـترى شـيئًا، فحسـب سـلمان حمَّـالًا، فقـال: تعـالى فاحمـل هـذا، فحمله سـلمان، فجعـل يتلقـاه النـاس ويقولـون: أصلـح الله الأمـير، نحـن نحمـل عنـك، فأبى أن يدفـع إليهـم، فقـال الرجل في نفسـه: ويحـك إني لم أسـخر إلا الأمير، فجعـل يعتذر إليـه ويقـول: لم أعرفـك أصلحك الله، فقـال: انطلق، فذهـب به إلى منزلـه، ثم قال: لا أسخر أحدًا أبدًا[٢].

---

(١) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (١/ ٨٣ برقم: ٤١).

(٢) تنبيه المغترين (ص: ١٤٢).

وقال الحسن بن عيسى (مولى عبد الله بن المبارك): كنت مع ابن المبارك يومًا فأتينا على سقاية والناس يشربون منها، فدنا منها ليشرب، ولم يعرفه الناس، فزحموه ودفعوه، فلما خرج قال: ما العيش إلا هكذا؛ حيث لم نعرف، ولم نوقر[(١)].

- **عدم الاستنكاف عن ذكر ما ينقصنا من أخطاء وقعنا فيها، أو فشل صادفنا، والتعود على التلقي من الجميع، وسؤال الآخرين عما نجهل أيًّا كان وضعهم، كالأبناء في البيت، والمرؤوسين في العمل... والتعود كذلك على قول: لا أدري، لما يخفى علينا من الأمور**

قال زاذان: خرج علينا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومًا وهو يمسح بطنه وهو ويقول: يا بردها على الكبد، سئلت عما لا أعلم فقلت: لا أعلم، والله أعلم[(٢)].

- **تقدير الآخرين وإشعارهم بقيمتهم، وإبراز أعمالهم ونجاحاتهم، وبخاصة في غيابهم، وحسن الإنصات وعدم مقاطعة المتحدث، ولو كان حديثه معروفًا لدينا**

حدث رجل بحديث، فاعترضه رجل، فغضب عطاء بن أبي رباح وقال: ما هذه الأخلاق؟ ما هذه الطباع؟ والله إن الرجل ليحدث بالحديث لأنا أعلم به منه، ولعسى أن يكون سمعه مني، فأنصت إليه وأريه كأني لم أسمعه قبل ذلك[(٣)].

---

(١) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢/ ٣٢٤).

(٢) أخلاق العلماء (ص: ١١٠).

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد - دار صادر - (٥/ ٤٦٩).

■ **مؤاخاة المؤمنين أيًّا كانت رتبتهم وقبول أعذار المعتذرين وإن كانت واهية، وحسن الاستماع إلى نصيحة الناصحين وعدم ردها**

وخلاصة القول: التواضع محله القلب، ولا بد من تكلف الأعمال التي تدل عليه ليزداد رسوخه في القلب. هذه الأعمال يجمعها مفهوم رؤية المرء لنفسه بعين النقص، ولربه بالإجلال والتعظيم، وللناس بالأفضلية.

ويؤكد ابن حزم على هذه الوسيلة في علاج العُجب فيقول: كانت فيَّ عيوب، ومنها عجب شديد، فناظر عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها، حتى ذهب كله ولم يبق والحمد لله أثر، بل كلفت نفسي احتقار قدرها جملة، واستعمال التواضع[1].

• • •

(١) الأخلاق والسير لابن حزم (ص: ١٠٨) - دار ابن حزم - بيروت.

الفصل الخامس

إغلاق الأبواب أمام النفس

- عند ورود النعم.
- عند النجاح في القيام بعمل ما.
- عند المدح.
- عند كثرة الخلطة والمجالس الفارغة.
- عند تولي مسئولية.
- عند الاشتهار بين الناس.
- عند إسداء خدمة للآخرين.
- العلاج المضاد.
- البديل.
- الفرح المحمود.

إغلاق الأبواب أمام النفس

إذا كانت النفس تحاول أن تأخذ حظها من كل فعل يقوم به العبد، فإن هذه المحاولة تزداد عند حالات معينة؛ لذلك علينا أن نكون على حذر باستمرار، وأن نعمل جاهدين على إغلاق الأبواب أمامها لتفشل في محاولاتها.

ومن هذه الحالات:

- **عند ورود النعم.**
- **عند النجاح بالقيام بعمل ما.**
- **عند المدح.**
- **عند كثرة الخلطة.**
- **عند تولي مسئولية.**
- **عند الاشتهار بين الناس.**
- **عند إسداء خدمة للآخرين.**

أولًا: عند ورود النعم

بين الحين والآخر تَرِد نعم كبيرة على العبد، مثل زيادة في الرزق، ونجاح في عمل أو دراسة، شراء بيت جديد، تغيير أثاث المنزل.

عند ذلك تجد النفس أمامها فرصة ومجالًا واسعًا للاستعظام، والفخر، والشعور بالتميز عن الآخرين بهذه النعم. فماذا نفعل كي نغلق هذا الباب أمامها؟

علينا أن نسارع بشكر الله عَزَّوَجَلَّ وذلك من خلال:

■ **سرعة ربط النعمة بالمنعم** -سُبْحَانَهُوَتَعَالَى- **وحمده عليها**، كما قال تعالى لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

■ **سجود الشكر الفوري بعد ورود النعمة**: وإطالة هذا السجود، ومناجاة الله فيه، واعترافنا بفضله علينا، وأنه لولا كرمه وجوده سبحانه ما حصلنا على هذه النعمة.

عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ من مكة نريد المدينة، فلما كنا قريبًا من عزورا (موضع قريب من مكة) نزل ثم رفع يديه، فدعا الله ساعة، ثم خر ساجدًا، فمكث طويلًا، ثم قام فرفع يديه ساعة، ثم خر ساجدًا -فعله ثلاثًا- وقال: «**إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي، وَشَفَعْتُ لِأُمَّتِي، فَأَعْطَانِي ثُلُثَ أُمَّتِي فَخَرَرْتُ سَاجِدًا شُكْرًا لِرَبِّي، ثُمَّ رَفَعْتُ رَأْسِي، فَسَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي، فَأَعْطَانِي ثُلُثَ أُمَّتِي فَخَرَرْتُ سَاجِدًا لِرَبِّي شُكْرًا، ثُمَّ رَفَعْتُ رَأْسِي، فَسَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي فَأَعْطَانِي الثُّلُثَ الآخَرَ، فَخَرَرْتُ سَاجِدًا لِرَبِّي**»(١).

---

(١) رواه أبو داود (٣/ ٢١٧ برقم: ٢٧٧٥) كتاب الجهاد - باب في سجود الشكر، والبيهقي (٢/ ٥١٨ برقم: ٣٩٣٥).

ويوضح ابن القيم أهمية الشكر الفوري لله عَزَّوَجَلَّ بعد ورود النعم فيقول: حدوث النعمة يوجب فرح النفس وانبساطها، وكثيرًا ما يجر ذلك إلى الأشر والبطر، والسجود ذل لله وعبودية وتضرع. فإذا تلقى به نعمته كان جديرًا بدوام تلك النعمة، وإذا تلقاه بالفرح الذي لا يحبه الله والأشر والبطر، كما يفعله الجُهَّال عندما يحدث لهم من النعم، كانت سريعة الزوال وشيكة الانتقال، وانقلبت نقمة، وعادت استدراجًا[(١)].

وليكن سجود الشكر فور ورود النعمة، فتأخرنا عن ذلك يعطي للشيطان فرصة لإضعاف همتنا نحو الشكر.

قال بكر بن عبد الله: ينزل بالعبد الأمر فيدعو الله عَزَّوَجَلَّ فيصرفه عنه، فيأتيه الشيطان فيضعف شكره، يقول: إن الأمر كان أيسر مما تذهب إليه، قال: أَوَ لا يقول العبد: كان الأمر أشد مما أذهب إليه، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ صرفه عني[(٢)].

■ **الإنفاق مما تحبه النفس**: سواء كان ذلك في صورة صدقة أو هدية، فالنفس يزداد شحها في وقت إقبال النعم عليها وعلاجها بالإنفاق مرة بعد مرة حتى تسكن.

فى الصحيحين: أنه لما تاب الله على كعب بن مالك سجد وألقى رداءه إلى الذي بشره[(٣)].

■ **المبالغة في القيام بصور التواضع**: وبخاصة الجلوس مع المساكين وتقديم الطعام لهم، والقيام على خدمتهم.

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ٢١٥).

(٢) الشكر لابن أبي الدنيا (برقم: ٢٦).

(٣) جزء من حديث كعب بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في البخاري (٥/ ١٥١ برقم: ٤٤١٨) كتاب المغازي، باب: حديث كعب بن مالك، ومسلم كتاب التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك (٤/ ٢١٢٠ برقم: ٢٧٦٩).

فلما أوحى الله لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إِذَا أَنْعَمْتَ عَلَيْكَ بِنِعْمَةٍ فَاسْتَقْبِلْهَا بِالْاسْتِكَانَةِ أُتْمِمُهَا عَلَيْكَ**»(١).

وقد مر علينا كيف كان حال النبي ﷺ عندما دخل مكة فاتحًا.

■ **كثرة العبادة:** وبخاصة قيام الليل، فعندما سألت السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسول الله ﷺ عن سبب قيامه بالليل حتى تورمت قدماه، مع أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال لها: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»(٢).

فاستقبال النعمة بهذه الأعمال سيكون له -بمشيئة الله- دور كبير في عدم السماح للنفس بالاستعظام والشعور بالتميز عن الآخرين، بل قد تكون هذه النعمة بمثابة وسيلة للقرب من الله عَزَّوَجَلَّ ...

---

(١) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا (برقم: ٩٢).

(٢) البخاري في التهجد، باب قيام النبي ﷺ بالليل حتى ترم قدماه، وكتاب التفسير، باب: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا» (برقم: ٤٨٣٦، ٤٨٣٧)، وكتاب الرقاق باب الصبر عن محارم الله (برقم: ٦٤٧١)، ومسلم في صفات المنافقين، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٤/ ٢١٧١ برقم: ٢٨١٩).

ثانيًا: عند النجاح في القيام بعمل ما

عنـد القيام بعمل مميز والنجاح في أدائه؛ كقيام ليل، أو دعوة مسلم شارد إلى المسجد، أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر... عند مثل هذه الأحوال تجد النفس أمامها المجال رحبًا لجعل صاحبها يحمدها، ويعجب بها، ويستعظم فعاله، وهذا باب خطير لو فتح أمام العبد عليه إغلاقه بسرعة، وإلا تعرض عمله الذي تعب فيه للضياع.

فماذا نفعل لكي نغلق هذا الباب أمام نفوسنا؟!

■ **إخفاء العمل قدر الإمكان، وعدم التحدث به أمام أحد من الناس**

فكلما كان العمل في الخفاء قلت فرصة النفس للإلحاح على صاحبها بحمدها.

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ**»[(١)].

قال الحسن: لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم عَزَّوَجَلَّ[(٢)].

ووعظ الناس يومًا، فتنفس رجل الصعداء، فقال: يا ابن أخي ما عساك أردت بما صنعت؟ إن كنت صادقًا فقد شهرت نفسك، وإن كنت كاذبًا فقد أهلكتها[(٣)].

ويقول محمد بن واسع: أدركت رجالًا، كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة، قد بل ما تحت خده من دموعه، لا تشعر به امرأته، ولقد أدركت

---

(١) رواه مسلم: (٤/ ٢٢٧٧ برقم: ٢٩٦٥) كتاب الزهد والرقائق.

(٢) الزهد لابن المبارك (ص: ٤٥).

(٣) الزهد للإمام أحمد (ص: ٤٤، ٤٥).

رجالًا يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خده لا يشعر به الذي إلى جانبه[١].

فلنعمل على إحاطة أعمالنا بأسوار عالية من السرية والكتمان -قدر الإمكان- ولا نسمح لأحد بالاطلاع عليها، ولنجتهد في تنفيذ وصية رسول الله ﷺ: «**مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَبْءٌ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلْيَفْعَلْ**»[٢].

■ **نسيان العمل بعد القيام به**

لنعمل على شغل أنفسنا بأمور أخرى فور الانتهاء من العمل الناجح المميز حتى لا نفكر كثيرًا فيه، وفي تميزه.. فكلما نسي العبد عمله الصالح بعد أدائه، كان ذلك أدعى لتعرضه للقبول من الله عَزَّوَجَلَّ لابتعاده عن محاولات النفس لسرقته والاستيلاء عليه؛ ومن ثمَّ نفي الإخلاص منه.

ومن وسائل نسيان العمل كذلك: سؤال الله عَزَّوَجَلَّ أن يصرف عنا التفكير في هذا العمل، وكذلك عدم طلب رأي الناس فيه. وهذا أمر مهم في هذا الباب، فالبعض منا يحرص بعد قيامه بعمل ما -كإلقائه موعظة أو قيامه بخدمة الآخرين- على سؤال غيره عن رأيه في هذا العمل، ويظل معه حتى يستنطق لسانه بمدحه والثناء عليه؛ مما يفتح للنفس بابًا عظيمًا للاستعظام والانتشاء والطرب.

■ **تقليل العمل**

كلما صغر العمل في عين صاحبه كان بعيدًا عن سطوة النفس، فلنعمل على ذلك، ولنسأل الله أن يصغر أعمالنا في أعيننا.

---

(١) الإخلاص والنية لابن أبي الدنيا (برقم: ٣٦).

(٢) رواه القضاعي في مسند الشهاب: (١/ ٢٦٧) عن ابن عمر مرفوعًا، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ١١٦ برقم: ٣٤٦٢٥).

ومما يعين على ذلك: عدم إحصاء أعمالنا الصالحة، فلا نسجل مثلًا عدد ختمات القرآن التي ختمناها، ولا عدد العمرات التي أديناها.

وكذلك: الاستتار من الكرامات كرؤية صالحة أو موقف فيه ولاية من الله عَزَّوَجَلَّ.

يقول ابن رجب: وأما العلماء فلا تعظم هذه الخوارق عندهم، بل يرون الزهد فيها، وأنها من نوع الفتنة والمحنة وبسط الدنيا على العبد، فيخافون من الاشتغال بها، والوقوف معها، والانقطاع عن الله.

ودخل إبراهيم الحصري على أحمد بن حنبل فقال: إن أمي رأت لك منامًا، هو كذا وكذا، وذكرت الجنة، فقال: يا أخي إن سهل بن سلامة [(١)] كان الناس يخبرونه بمثل هذا وخرج إلى سفك الدماء[(٢)].

■ **تخويف النفس**

ومن طبيعة النفس أنها كالطفل إذا خوف خاف، هكذا خلقها الله عَزَّوَجَلَّ فإذا ما ألحت علينا أنفسنا بحمدها: علينا أن نذكرها ونخوفها من عاقبة العُجب، وأنه يحبط العمل الذي أخذ منا وقتًا وجهدًا، وأنه كذلك يعرضنا لمقت الله عَزَّوَجَلَّ وحرمان التوفيق فيما نستقبل من أعمال. ..

---

(١) وقد جاء في تاريخ الطبري في سنة إحدى ومائتين أنه خرج أول أمره يدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويأخذ على يد اللصوص والسراق، ثم خرج على الخليفة وطالب بالبيعة لنفسه وحارب المسلمين

(٢) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٢٧).

ثالثًا: عند المدح

وهو من أخطر الأبواب على النفس؛ فإذا ما فُتح أمامها فإنها تجد المجال خصبًا لكي تنتفخ وتتعاظم؛ فهو الشراب الحلو اللذيذ الذي يسكرها ويجعلها تعيش في أجواء النشوة والسرور والطرب.

لذلك قيل: المدح هو الذبح! فمن أراد أن يذبح أحدًا فليكثر من مدحه، كما قال رسول الله ﷺ لمن مدح رجلًا عنده: «**وَيْحَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، لَوْ سَمِعَهَا مَا أَفْلَحَ**» ثم قال: «**إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ لَا بُدَّ مَادِحًا أَخَاهُ فَلْيَقُلْ أَحْسِبُ فُلَانًا وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَدًا، حَسِيبُهُ اللهُ إِنْ كَانَ يَرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ**»(١).

ماذا نفعل عند المدح؟

ولكن ماذا نفعل إذا ما مدحَنا شخص في وجوهنا؟

■ **علينا بعدم الاسترسال أو التجاوب مع المدح ومدافعته بشتى الطرق**

فهذا رسولنا الحبيب ﷺ يقول لأصحابه: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»(٢).

وعن أنس أن رجلًا قال: يا محمد أيا سيدنا، وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا فقال رسول الله ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، عَلَيْكُمْ بِتَقْوَاكُمْ، لَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ**

(١) رواه البخاري في الشهادات، باب إذا ذكى رجلٌ رجلًا (برقم: ٢٦٦٢)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٦برقم: ٣٠٠٠) كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط.

(٢) البخاري كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦] (برقم: ٣٤٤٥).

الشَّـيْطَانُ، أَنَـا مُحَمَّـدُ بْـنُ عَبْـدِ اللهِ، عَبْـدُ اللهِ وَرَسُـولُهُ، واللهِ مَـا أُحِـبُّ أَنْ تَرْفَعُونِـي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ»(١).

أطرى رجل عمر بن عبد العزيز في وجهه، فقال: يا هذا؟ لو عرفت من نفسي ما أعرف منها، ما نظرت في وجهي(٢).

وذكر أن العلاء بن زياد قال له رجل: رأيت كأنك في الجنة، فقال له: ويحك، أما وجد الشيطان أن أحدًا يسخر به غيري وغيرك(٣)؟

ويعلمنا الحسن البصري كيف نرد على من يمدحنا فيقول: قيل لبعضهم: ما أقل التفاتك في صلاتك، وأحسن خشـوعك!! فقال: يا ابن أخي، وما يدريك أين كان قلبي؟

وقيل لابن حنبل: ما أكثر الداعين لك، فتغرغرت عيناه، وقال: أخاف أن يكون هذا استدراجًا. وقال له خرساني: الحمد لله الذي رأيتك، قال: اقعد، أي شيء ذا؟ من أنا؟(٤)

■ زجر ونهي المادح

فلو زجر كل منا من يمدحه، فلن يستمر في المدح، ولن يعود إلى تكرار ذلك مرة

---

(١) رواه أحمد: (٢٠/ ٢٣ برقم: ١٢٥٥١)، والنسائي في عمل اليوم والليلة: (ص: ٢٥٠ برقم: ٢٤٩) وصححه المقدسي في المختارة: (٥/ ٢٦) وصححه ابن عبد الهادي في الصارم المنكى: (ص: ٤٥٩) على شرط مسلم وجود إسناده ابن مفلح في الآداب: (٣/ ٤٣٩).

(٢) ذكره المرّوذي في أخبار الشيوخ وأخلاقهم: (ص: ١٨٠ برقم: ٣٢٢).

(٣) الزهد لأحمد بن حنبل: (برقم: ١٤٢٥).

(٤) صلاح الأمة في علو الهمة: (٥/ ٤٤٣).

أخرى. قال ﷺ: «**احْثُوا التُّرَابَ فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ**»(١).

وقال رجل يومًا لابن عمر: يا خير الناس، أو يا ابن خير الناس، فقال: ما أنا خير الناس، ولا ابن خير الناس، ولكني عبد من عباد الله، أرجو الله وأخافه، والله لن تزالوا بالرجل حتى تهلكوه(٢).

■ **مطالبة الناس بحمد الله لا حمدك**

فعلينا بتذكير المادح بحقيقتنا، وأن الذي يستوجب الحمد هو الله، لا نحن، فلو تركنا ولم يمدنا بأسباب التوفيق ما وفقنا.

يقول ابن رجب: من هنا كان أئمة الهدى ينهون عن حمدهم على أعمالهم، وما يصدر منهم من الإحسان إلى الخلق، ويأمرون بإضافة الحمد على ذلك لله وحده لا شريك له، فإن النعم كلها منه.

وكان عمر بن عبد العزيز -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- شديد العناية بذلك، وكتب مرة إلى أهل الموسم كتابًا يقرأ عليهم، وفيه الأمر بالإحسان إليهم، وإزالة المظالم التي كانت عليهم، وفي الكتاب: ولا تحمدوا على ذلك كله إلا الله، فإنه إن وكلني إلى نفسي كنت كغيري.

ويستطرد ابن رجب: وحكايته مع المرأة التي طلبت منه أن يفرض لبناتها اليتامى مشهورة، فإنها كانت لها أربع بنات ففرض لاثنتين منهن، وهي تحمد الله، ثم فرض للثالثة، فشكرته، فقال: إنما كنا نفرض لهن حيث كنت تولين الحمد أهله فمري الثلاث يواسين الرابعة (٣).

---

(١) رواه مسلم: (٤/ ٢٢٩٧ برقم: ٣٠٠٢).

(٢) أبو نعيم في الحلية: (١/ ٣٠٧).

(٣) شرح الحديث ما ذئبان جائعان: (ص: ٤١، ٤٢).

رابعًا: عند كثرة الخلطة والمجالس الفارغة

من الأمور التي تجد النفس من خلالها الفرصة مواتية لدفع صاحبها إلى أن يزكيها، ويمجدها: كثرة الخلطة بالناس، والوجود في المجالس الفارغة، التي يتجاذب فيها الحاضرون أطراف الحديث، فيجد الشخص نفسه وقد استدرج للحديث عن نفسه وعن أعماله وحياته الخاصة، وشيئًا فشيئًا تسقط الحواجز الداخلية لديه فلا يجد غضاضة في إفشاء عمله الذي ظل يخبئه سنوات طوالًا.

فما العمل؟ ونحن نعيش بين الناس؟!

الحل الأمثل لإغلاق هذا الباب هو أن تكون خلطتنا مع الناس في الخير والتعاون على البر، أما غير ذلك فلنكن في بيوتنا كما قال أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: نعم صومعة الرجل بيته، يكف سمعه وبصره ودينه وعرضه، وإياكم والجلوس في الأسواق فإنها تُلْهِي، وتُلْغِي[1].

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

(لو لم يكن في العزلة إلا السلامة من آفة الرياء، والتصنع للناس، وما يدفع إليه الإنسان إذا كان فيهم من استعمال المداهنة معهم، وخداع المواربة في رضاهم، لكان في ذلك ما يُرغِّبُ في العزلة ويحرك إليها...)[2].

(١) العزلة للخطابي: (ص: ٧٠، ٧١) دار ابن كثير – دمشق.

(٢) العزلة للخطابي: (ص: ١٠١، ١٠٢).

نعــم، إن المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر عــلى أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم كما قال رســول الله ﷺ[١]، ولكن هذه الخلطة ينبغي أن تكون في مشــاهد الخير -كما ذكر النووي: مثل حضور جُمَعِهم، وجماعاتهم، ومجالس الذكر معهم، وعيــادة مريضهم وحضور جنائزهم ومواســاة محتاجهم، وإرشــاد جاهلهــم، وغير ذلك من مصالحهــم، وهذا ما كان عليه رســول الله ﷺ، وكذلك الخلفاء الراشدون، ومن بعدهم من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم علماء المسلمين وأخيارهم[٢]...

(١) مسند الإمام أحمد: (٩/ ٦٤ برقم: ٥٠٢٢)، الترمذي: (٤/ ٦٦٢ برقم: ٢٥٠٧)، ابن ماجة: (برقم: ٤٠٣٢)، أبو نعيم في الحلية: (٧/ ٣٦٥)، البغوي في شرح السنة: (برقم: ٣٥٨٥)، البيهقي في شعب الإيمان: (برقم: ٨١٠٢).

(٢) رياض الصالحين للنووى: (ص: ٢٩٣) مؤسسة الرسالة.

خامسًا: عند تولي مسئولية

المسئولية والإمارة باب فتنة عظيمة للنفس، ووسيلة لخلع جلباب الذل والانكسار والعبودية لله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يحذر أصحابه من طلبها، ففى الحديث: «**يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ: لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُوتِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا...**»[(١)].

إن وجود المرء في موقع المسئولية والصدارة من شأنه أن ينسيه حقيقة نفسه من ضعف وعجز، وأن ينخدع في السلطة التي تحت يديه؛ مما يتسبب في استعظامه لنفسه واستعلائه على الآخرين.

فما العمل لإغلاق هذا الباب؟!

ليدفع كل منا عن نفسه الإمارة، وليتهرب منها غاية الإمكان، فإذا ما كلف بمسئولية ما، ولم يجد له مناصًا من قبولها فعليه لزوم الخوف والحذر من تبعاتها، وعليه كذلك المداومة على استشارة من حوله، وعدم الانفراد برأيه، وأن يكثر من استخدام العلاج المضاد والذي سيأتي بيانه بعون الله، وعليه كذلك أن يبالغ في القيام بصور التواضع السابق ذكرها.

---

(١) البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب: ١ (٧/ ٣٧٥ برقم: ٦٦٢٢)، ومسلم كتاب الأيمان، باب: من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها (٣/ ١٢٧٣ برقم: ١٦٥٢).

سادسًا: عند الاشتهار بين الناس

من أخطر الأبواب أمام النفس: الاشتهار بين الناس، والوقوع تحت الأضواء، فمن خلال ذلك، يجد الشخص نفسه وقد التف الناس حوله، وكثر من يمدحه، ويثني عليه؛ مما يجعله مهيأ لتصديق كلامهم بأنه مميز، وأنه، وأنه، فتكبر عنده نفسه، ويزداد إعجابه بها.

إنها فتنة عظيمة، يصعب على المرء التخلص منها إلا إذا استعان بالله استعانة صادقة كي يحفظه منها، وألا ينسيه أصله وعجزه وجهله، وأن يقيه شر نفسه.

وعلى كل من ابتلي بالاشتهار بين الناس كذلك أن يكثر من تكلف أفعال المتواضعين ويبالغ في ذلك، دون أن يشعر به أحد، فيكثر من الجلوس مع المساكين والتودد إليهم ومؤاكلتهم والسعي في خدمتهم، وكذلك القيام على خدمة نفسه، ولا يسمح لأحد بخدمته قدر المستطاع.

وعليه كذلك أن يصلي على التراب كلما سنحت له الفرصة، وأن يعوِّد نفسه الاستماع إلى غيره، فمن فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع كما قال بعض السلف[(١)].

وعليه كذلك أن يكثر من استخدام العلاج المضاد، والذي سيأتي بيانه، وعليه أن يدفع بنفسه كل فترة للقيام بأعمال عامة الناس، كما فعل عبد الله بن سلام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عندما حمل حزمة حطب فقيل له: يا أبا يوسف قد كان في غلمانك وبنيك من يكفيك! قال: أجل، ولكن أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك[(٢)]؟

---

(١) الزهد لابن المبارك: (١٦).

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي طبعة دار المنهاج (١/ ٤٩٠ برقم: ٣٦٢) وانظر الكلام عليه من محققه: حسين سليم أسد.

سابعًا: عند إسداء خدمة للآخرين

من الأبواب التي تجد النفس عند فتحها فرصة عظيمة للاستطالة على غيرها، والشعور بالعلو والتميز عنهم: النجاح في تقديم خدمات للآخرين، فعندما يحدث ذلك، تبدأ النفس في الإلحاح على صاحبها بالمن على هؤلاء، وتذكيرهم بما فعله معهم من بذل وتضحية، مع العمل الدائم على استنطاقهم ومعرفة رأيهم فيما تم معهم، بل وجرهم للثناء عليه وشكره.

يحتاج هذا الباب إلى مجاهدة عظيمة من المرء لإغلاقه إذا ما فتح أمامه، ومن أهم الوسائل لذلك:

■ **تذكير النفس بخطورة المن بالعطايا على الآخرين –سواء أكانت مادية أم معنوية– وأنها تحبط العمل.**

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

قال الضحاك في هذه الآية: من أنفق نفقة ثم مَنَّ بها، أو آذى الذي أعطاه النفقة حبط أجره، فضرب مثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فلم يدع من التراب شيئًا، فكذلك يمحق الله أجر الذي يعطي صدقته، ثم يمن بها كما يمحق المطر ذلك التراب[١].

والمَن لا يحبط العمل فقط، ولكنه كذلك يستوجب غضب الله عَزَّوَجَلَّ على فاعله،

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور لابن المنذر (٢/ ٤٤)، والصفوان: الحجر الأملس.

قال رســول الله ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَــةِ: الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَالْمُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَالْمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى...**»(١).

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لا يدخل الجنة منان. فشــق ذلك عليّ حتى وجدت في كتاب الله في المنان: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤](٢).

■ **الاجتهاد في عدم مقابلة من أسديت إليه الخدمة أو الاتصال به فترة من الزمن تنسى فيها النفس ما حدث وتنشغل بأمور أخرى.**

■ **علينــا أن نقلل من حجم العمل الذي قمنا به مع الآخرين، ونشــعرهم أننا لم نتكلف الشيء الكبير بفعلنا هذا إذا ما حاولوا شكرنا عليه.**

■ **ومن وســائل إغلاق هذا الباب: العمل على خدمة الآخرين دون أن يشعروا بك، أو يعرفوا هويتك.**

كان علي بن الحسين يُبَخَّل (يقال عنه بخيل)، فلما مات، وجدوه يقوت مائة أهل بيت بالمدينة.. وكان الناس في المدينة يعيشــون لا يدرون من أين يأتي معاشــهم، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون به الليل(٣).

---

(١) رواه أحمد (١٠/ ٣٢٢ برقم: ٦١٨٠)، وابن حبان (١٦/ ٣٣٥ برقم: ٧٣٤٠)، والحاكم (١٦/ ٣٣٤ برقم: ٧٣٤٠) وصححه عن ابن عمر، والبيهقي(٨/ ٢٨٨ برقم: ١٧٨٠٥).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٥١٧ برقم: ٢٧٣٧).

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٦٢).

العلاج المضاد

تأتي على الواحد منا لحظات يضعف فيها أمام نفسه، وأمام إلحاحها عليه لحمدها، واستعظامها، والإعجاب بها، وتزكيتها أمام الآخرين.

.. نعم، إن العمل الدائم على إغلاق الأبواب أمام النفس من شأنه أن يقلل فرص وجود هذه اللحظات، ولكن ماذا نفعل إذا جاءت؟!

لقد كانت مثل هذه اللحظات تأتي للصالحين ممن سبقونا، ولقد كانوا يستخدمون علاجات سريعة من شأنها أن تعيد للمرء توازنه مع نفسه مرة أخرى، ومن ذلك:

■ نقد النفس أمام الآخرين

نادى عمر بن الخطاب يومًا: الصلاة جامعة. وصعد المنبر وقال: أيها الناس، لقد رأيتني أرعى على خالات لي من بني مخزوم فيقبضن لي القبضة من التمر والزبيب، فأظل في يوم وأي يوم. ثم نزل، فقال عبد الرحمن بن عوف: والله يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قمئت نفسك. فقال عمر: ويحك يا ابن عوف، إنى خلوت فحدثتني نفسي فقالت: أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك؟! فأردت أن أعرفها نفسها[١].

■ القيام بأفعال تقلل من شأنها

قال عروة: رأيت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعلى عاتقه قربة ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هذا، فقال: لما أتتني الوفود بالسمع والطاعة دخلت في نفسي نخوة، فأحببت أن أكسرها، ومضى بالقربة إلى حُجرة امرأة من الأنصار فأفرغها في إنائها[٢].

---

(١) الدينوري في المجالسة (٤/ ٤٦٦ برقم: ١٦٨٢).

(٢) ذكره القشيري في الرسالة: (١/ ٢٧٩) دار المعارف.

ولقد تشاجر أبو ذر وبلال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، فَعَيَّر أبو ذر بلالًا بالسواد فشكاه إلى النبي ﷺ، فقال: «**يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّهُ بَقِيَ فِي قَلْبِكَ مِنْ كِبْرِ الْجَاهِلِيَّةِ شَيْءٌ**» فألقى أبو ذر نفسه، وحلف ألا يرفع رأسه حتى يطأ بلال خده بقدمه، فلم يرفع حتى فعل بلال(١).

■ طلب النصيحة والنقد من الآخرين

فالاستماع إلى النصيحة والنقد من الآخرين له دور كبير في عودة النفس إلى ما كانت عليه، وإزالة شموخها وانتفاخها.

فعلينا أن نطلب ممن حولنا أن يقدموا لنا النصيحة كما كان يفعل عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بقوله: رحم الله امرأً أهدى إليّ عيوبي.

ومن صور النصيحة: تقديمها في صورة رسالة مكتوبة ليتسنى لنا قراءتها كل فترة، ولتكن بمثابة الدواء السريع عند الشعور بالانتشاء واستعظام النفس.

ولنحذر من مقاطعة الناصح أو محاولة الدفاع عن أنفسنا أمامه، وإلا فقد هذا الدواء مفعوله.

---

(١) أصل الحديث عند البخاري (١/ ١٥ برقم: ٣٠) كتاب الأيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية، كتاب العتق باب: قول النبي ﷺ: «**العبيد إخوانكم**» (برقم: ٢٥٤٥)، ومسلم: (٣/ ١٢٨٢ برقم: ١٦٦١) كتاب الأيمان باب: إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس، وليس فيه تفاصيل هذه القصة. وأما هذه القصة فقد ذكرها ابن بطال في شرح صحيح البخاري: (١/ ٨٧): روى الوليد بن مسلم، عن أبي بكر، عن ضمرة بن حبيب، قال: كان بين أبي ذر وبين بلال محاورة، فعيره أبو ذر بسواد أمه، فانطلق بلال إلى رسول الله ﷺ، فشكى إليه تعييره بذلك، فأمره رسول الله ﷺ أن يدعوه، فلما جاءه أبو ذر، قال له رسول الله ﷺ: «**شتمت بلالًا وعيّرته بسواد أمه؟**» قال: نعم، قال رسول الله ﷺ: «**ما كنت أحسب أنه بقي فى صدرك من كبر الجاهلية شيء**»، فألقى أبو ذر نفسه بالأرض، ثم وضع خدَّه على التراب، وقال: والله لا أرفع خدي من التراب حتى يطأ بلالُ خدي بقدمه، فوطأ خده بقدمه.

(كان الوزير نظام الملك يكثر من إدخال أحد الفقهاء عليه، فسئل في ذلك، فقال: هذا الفقيه يدخل عليّ فلا يطريني، ولا يغرني، بل يذكرني بذنوبي وتقصيري فيخرج من عندي، وقد غسلت نفسي من الكبر، ثم هو لا يقبل مني عطاء ولو اجتهدت في إقناعه. أما غيره فأشعر حين يخرجون من عندي أن نفسي تغتر ويعتريها غفلات)(١).

■ أين مِرآتك؟

ومن صور هذا العلاج كذلك: أن يتخذ الواحد منا لنفسه صديقًا يتعاهد معه على دوام نصحه، مثلما فعل عمر بن عبد العزيز عندما طلب ذلك من مولاه مزاحم بقوله: إن الولاة جعلوا العيون على العوام، وأنا أجعلك عيني على نفسي، فإن سمعت مني كلمة تربأ بي عنها، أو فعلًا لا تحبه، فعظني عنده، وانهني عنه.

وطلب -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- نفس الطلب من عمرو بن مهاجر وقال له: يا عمرو إذا رأيتني قد مِلت عن الحق فضع يدك في تلابيبي، ثم هزني، ثم قل لي: ماذا تصنع؟

بل الأعجب من ذلك أنه لما استُخْلِف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال لمن حوله: انظروا رجلين من أفضل من تجدون، فجيء برجلين، فكان إذا جلس مجلس الإمارة أمر، فألقى لهما وسادة قبالته، فقال لهما: إنه مجلس شر وفتنة، فلا يكن لكما عمل إلا النظر إلي، فإذا رأيتما مني شيئًا لا يوافق الحق، فخوفاني وذكراني بالله عَزَّوَجَلَّ(٢).

ويؤكد الماوردي هذا المعنى فيقول: وينبغي للعاقل أن يسترشد إخوان الصدق الذين هم أصفياء القلوب، ومرايا المحاسن والعيوب على ما ينبهونه عليه من مساويه،

(١) أبطال ومواقف لأحمد فرج عقيلان: (ص: ٤٣٠) -دار ابن حزم- بيروت.

(٢) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي: (ص: ٢٢٥، ٢٢٦).

التي صرفه حسن الظن عنها، فإنهم أمكن نظرًا، وأسلم فكرًا، ويجعلون ما ينبهونه به عليه من مساويه عوضًا عن تصديق المدح فيه(١).

ومن هنا ندرك قول رسول الله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ**»(٢).

فليتخذ كلٌ منا لنفسه مرآة يرى فيها عيوبه، ويعود بها إلى حجمه الحقيقي.

■ ترك العمل الذي يُفسِد صاحبَه

فكما قال الحسن: لا يزال الرجل بخير ما علم بالذي يفسد عليه عمله.

صلى حذيفة بقوم، فلما سلم من صلاته قال: لتلتمسن إمامًا غيري أو لتُصَلُّنَّ وحدانًا، فإنى رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني(٣).

وهذا أبو عبيدة بن الجراح يؤم يومًا، فلما انصرف قال: ما زال الشيطان بى آنفًا حتى رأيت أن لي فضلًا على من خلفي، لا أؤم أبدًا(٤).

وكان عمر بن عبد العزيز إذا خطب على المنبر فخاف على نفسه العُجب، قطع خطبته، وإذا كتب كتابًا أعجب به مزقه، ويقول: اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي.

وقال بعضهم: إذا كنت تتحدث فأعجبك الحديث فاصمت، وإذا كنت صامتًا

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٣٥).

(٢) رواه أبو داود (٤/ ٢٨٠ برقم: ٤٩١٨) كتاب الأدب، باب في النصيحة والحياطة، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٦٧برقم: ١٦٤٥٨). وفي شعب الإيمان (٦/ ١١٣برقم: ٧٦٤٥).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١/ ٣٥٨ برقم: ٤١١٤).

(٤) الزهد لابن المبارك (ص: ١٩٣) في زيادات نعيم بن حماد (ص: ٥٣).

فأعجبك صمتك فتحدث[١].

■ التصدق بالشيء الذي تم الإعجاب به أو مما تحبه النفس

كما فعلت السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في الدرع الذي لبسته وأعجبت به كما مر علينا.

ومما يؤكد هذا المعنى أن رسول الله ﷺ قد احتذى نعلًا فأعجبه حسنها فسجد وقال: «**تَوَاضَعْتُ لِرَبِّي** عَزَّ وَجَلَّ **كَيْ لَا يَمْقُتَنِي**» ثم خرج بها فدفعها إلى أول سائل لقيه، ثم أمر عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يشتري له نعلين سبتيتين جرداوين، «فلبسهما»[٢].

■ علينا بتجهيز أجوبة تدفع عنا خطورة المدح وإعجاب النفس

كقوله ﷺ للذى أصابته رعدة عند رؤيته: «**هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ**»[٣].

يعلق الماوردي على هذا الموقف فيقول: وإنما قال ذلك ﷺ حسمًا لمواد الكبر، وقطعًا لذرائع الإعجاب، وكسرًا لإسراف النفس، وتذليلًا لسطوة الاستعلاء[٤].

وعندما تفاخرت قريش عند سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومًا، قال سلمان: لكنني

---

(١) الزهد لابن المبارك (ص: ٦٧).

(٢) قال العراقي في تخريج الإحياء: رواه عبد الله بن حقيق في «شرف الفقراء» من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) رواه ابن ماجة، أبواب الأطعمة، (برقم: ٣٣١٢) وقال البوصيري في الزوائد (٤/ ١٩): هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات، والطبراني في الأوسط (٢/ ٦٤ برقم: ١٢٦٠) واللفظ له، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٦) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٤) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٣٣).

خُلقْتُ من نطفة قذرة، ثم أعــود جيفة منتنة، ثم آتي الميزان، فإن ثقل فأنا كريم، وإن خف فأنا لئيم[١].

وعندما ســئل عمــر بن عبد العزيز: يــا أمير المؤمنين، كيــف أصبحت؟ قال: أصبحت بطينًا، ملوثًا في الخطايا، أتمنى على الله الأماني[٢].

وكتب -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- كتابًا إلى بعض نوابه في الأمصار وقال في آخره: وإني لأعظك بهذا، وإنى لكثير الإسراف على نفسي غير محكم لكثير من أمري[٣].

البديل

فإن قلت: لــو أغلقنا على النفس مثل هذه الأبــواب، وأعطيناها الدواء المضاد فكيف سيكون طعم الحياة؟ وأين البديل للسعادة؟

نعم لو تم التعامل فقط مع هذه الوسيلة دون ما سبق من وسائل سابقة، وبخاصة وسيلة معرفة الله، فقد نعاني من هذا الأمر، وقد نجد ضيقًا في صدورنا؛ مما قد يجعلنا نستسلم لأنفسنا، ونضعف أمامها، ونسقيها شراب النشوة والطرب.

فالحل إذن وجود البديل

وهـل هنـاك أحـلى أو ألـذ أو أطعـم مـن حـلاوة الإيـمان، والقـرب مـن الله والأنـس بـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟! كـما قال أحـد السـلف: إنه لتمـر بالقلب أوقـات يرقص فيهـا طربًـا، وقـال آخـر: لـو علـم الملـوك وأبنـاء الملـوك مـا نحـن فيـه مـن النعيم،

(١) عزاه ابن كثير في البداية والنهاية (١٩/ ٥١٠) لابن أبي الدنيا - طبعة هجر.

(٢) سيرة ومناقب عمر بن العزيز.

(٣) لطائف المعارف لابن رجب (ص: ٢٢).

لجالدونا عليه بالسيوف(١).

فلذة مناجاة الله وذكره وتلاوة كتابه لا تعدلها لذة، ولو اجتمعت عليها كل لذات الأرض، فلنحرص على التمتع بتلك اللذة من خلال التعرف على الله -عَزَّوَجَلَّ- المنعم، الكريم، الودود، الرحيم، القيوم، ولنردد مع من قال:

لها أحاديثُ منْ ذكراكَ تشغلُها عن الطعامِ وتلهيها عن الزادِ
لها بوجهكَ نورٌ يستضاءُ بهِ ومن حديثكَ في أعقابها حادِ

الفرح المحمود

تبقى نقطة أخرى في هذا الموضوع، وهي خاصة بمسألة الشعور بالفرح والسرور الذي ينتاب الفرد في بعض الأوقات عند ورود نعمة، أو عند التوفيق للقيام بعمل صالح... هل هذا الفرح مذموم أم لا؟!

الفرح المذموم هو فرح المرء بنفسه وافتخاره بها أنها صارت كذا وكذا، أو قامت بفعل كذا وكذا، وهذا الذي تلبس به قارون: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ٧٦ ﴾ [القصص: ٧٦].

أما الفرح المحمود فهو فرح العبد بربه أن أكرمه بهذه النعمة واختصه بها، وأن وفقه للقيام بهذه الطاعة، وجعله سببًا لدعوة الناس وإقبالهم على دينه... وهذا ما يؤكده قوله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ٥٨ ﴾ [يونس: ٥٨].

فلا يستطيع أحدٌ أن يمنع نفسه من الفرح عند تلقي أخبار سارة، أو ورود نعمة

(١) الوابل الصيب لابن القيم (ص: ٩٧).

جديدة، أو القيام بعمل من الأعمال والنجاح فيه، لكن علينا أن ننسب كل فضل لله، وأن يكون فرحنا بــه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤، ٥]. ونترجم هذا الفرح بمناجاة الله وحمده على فضله وتوفيقه، وأنه لولاه ما تم شيء من هذا أبدًا.

ومما يلحق بهذه النقطة قوله ﷺ لأبي ذر: «**تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ**»[١] عندما سأله: يا رسول الله، أرأيت الرجل يعمل العمل لله يحمده الناس عليه؟!

فالضابط لفرح أحدنا بحمد الناس له أن يكون منشأ فرحه: الفرح بالله وبفضله وتوفيقه للقيام بهذا العمل، والذي يســاعده على ذلك المســارعة إلى شكر الله عَزَّوَجَلَّ ومناجاته، وأن ينسب الفضل كله إليه.

يقول ابن القيم: والذي يساعد العبد على تصفية سروره من شوائب الطغيان أن يبالغ في الشكر ويكثر منه، وكذلك التواضع والتذلل لله عَزَّوَجَلَّ.

• • •

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٣٤ برقم: ٢٦٤٢) كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أثنى على الصالح فهي بشرى ولا تضره.

الفصل السادس

العــلاج بالقـــــرآن

- دور القرآن في العلاج.
- لماذا لا ينفعنا القرآن؟!
- الوسائل العامة للانتفاع بالقرآن.
- كيفية علاج العُجب بالقرآن.

العلاج بالقرآن

القــرآن الكريم له دور كبير في عــلاج أمراض القلوب، وعلى رأســها مرض العُجب، وما يحدثه هذا المرض في نفس الإنسان من تعاظم واستعظام على الآخرين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ ﴾ [يونس: ٥٧].

وطريقة القــرآن في العلاج طريقة فريدة تجمع الكثير من الوســائل الســابقة، وتضيف عليها ما يعين قارئه على مداومة الانتباه لنفسه، والعمل الدائم على إزالة أي تضخم في ذاته.

فمن خلال القرآن

أولًا: نتعرف على الله عَزَّوَجَلَّ

وكـما قيـل من قبـل فإن معرفـة الله عَزَّوَجَلَّ لهـا دور عظيم في محو أي أثـر للكبر في النفـس، عـلى أن تكـون هـذه المعرفـة نافعة ليسـت معرفـة بـاردة، بمعنـى أنها تمس القلـب والمشـاعر وليـس معرفـة عقلية فقـط، وهنا يـأتي دور القـرآن بكونه رسـالة مـن الله عَزَّوَجَلَّ للبـشر؛ يعرفهـم فيهـا بنفسـه من خـلال أسـمائه وصفاته، وآثـار تلك الأسـماء والصفـات في النفـس والكـون؛ ممـا يـورث العبـد الكثـير مـن المعرفـة بـه

سبحانه، وعلى قدر تلك المعرفة تكون عبودية القلب واتجاه مشاعره لربه ومولاه...

فعلى قدر معرفة الله المنعم يكون حب العبد له سبحانه، وعلى قدر معرفة الله القيوم تكون الاستعانة والتوكل عليه، وعلى قدر معرفة الله الرحيم يكون الرجاء فيه، وعلى قدر معرفة الله الجبار يكون الخوف والحذر منه عَزَّوَجَلَّ... وهكذا.

وكلما ازدادت معرفة العبد لربه ازداد شعوره بعظيم احتياجه إليه، وضآلة حجمه، وأنه لا قيمة له إلا به، ولا غنى له عنه.

ثانيًا: القرآن يعرفنا بأنفسنا

قال رسول الله ﷺ: «.. **وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا إِذَا أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ**»[(١)].

فإعجاب المرء بنفسه دليل على جهله بها وبحقيقتها؛ لذلك تجد الموضوع الرئيس في القرآن بعد التعريف بالله هو التعريف بالإنسان وبأصله وحقيقته من ضعف وجهل، وعجز، واحتياج دائم إلى ما يصلحه ويقيمه.

ويعرفنا القرآن كذلك بطبيعة النفس وأنها أمارة بالسوء، لديها قابلية للفجور والطغيان، تحب الاستئثار بكل خير، لا تنظر للعواقب...

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٣/ ٦١٩ برقم: ١٤٥٤١) عند عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٢٠) فيه إسحق ابن أسيد. قال أبو حاتم: لا يشتغل به. ورواه البيهقي في شعب الإيمان مقطوعًا على مسروق.

ثالثًا: القرآن يشعرنا بضآلة ما نقدمه من أعمال

من خــلال عرضه الدائم لعبادة الكون وما فيه مــن مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ، كقوله تعــالى: ﴿ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾ [فصلت: ٣٨].

وقوله: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

رابعًا: القرآن يحذرنا من عاقبة العُجب والكبر والغرور

ويعرض الكثير من نماذج الذين استسلموا لهذه الأمراض فأهلكتهم؛ كإبليس، وقارون، وفرعون، وصاحب الجنتين.

خامسًا: القـرآن يقـدم وصفـات العـلاج لأهـل الكـبر والغـرور والإعجـاب بالنفـس

فعلى ســبيل المثال: خطاب القرآن لليهود، وتذكيرهم بما فعلوه، يحمل في طياته أيضًا وصفة علاج لهم، إذا ما أرادوا الشفاء مما هم فيه، ومن ذلك مطالبتهم بذكر نعم ربهم عليهــم ليكفوا عن طغيانهــم: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٢].

ومع ذكر النعم، عليهم كذلك تذكر الآخرة وما فيها من أهوال: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

[البقرة: ٤٨].

والقرآن يكشــف لهم زيف ادعائهم، ويضع أنفسهم أمام اختبار قاس من شأنه أن يزيل أوهامهــم: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الجمعة: ٦].

قال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَقُولُهَا رَجُلٌ مِنْهُمْ إِلَّا غُصَّ بِرِيقِهِ**»[١]، يعني يموت مكانه.

سادسًا: القرآن يبين لقارئه كيف ربى الله رسله وأنبياءه وعباده الصالحين

رباهم على العبودية والإخلاص له سبحانه، وعلى أنهم بالله لا بأنفسهم...

فبكلمة قالها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لبث في السجن بضع سنين: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [يوسف: ٤٢].

وبعد الإسراء والمعراج، وبلوغ الرسول ﷺ منزلة لم يصلها أحد من قبله، تأتي آيات سورة الإسراء تذكر الرسول ﷺ بحقيقته، وأنه بالله لا بنفسه: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٦].

وأن ثباته أمام المشركين من عند الله: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٤].

وتحذره من الشرك وصوره: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٢].

ومع الصحابة -رضوان الله عليهم- نجد القرآن يذكرهم بعد كل نصر حققوه على المشركين بأن الذي نصرهم هو الله، وما هم إلا ستار لقدرته، فبعد غزوة بدر: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧].

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢٧٤) وضعفه العراقي في تخريج الإحياء (١/ ٨٧٢).

وبعد الأحزاب: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وبعد بني النضير: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الحشر: ٢].

وهكذا نجد القرآن يعطي مساحة كبيرة لهذا الموضوع لنحتذي به في تربيتنا لأنفسنا.

سابعًا: القرآن يمحو مواضع الضعف والنقص (المتوهمة) من داخل الإنسان

وذلك من خلال تعريفه بمكانته في هذا الكون وأنه هو قائده، وكذلك من خلال مخاطبته لعقله، واستثارة كوامنه؛ مما يشعره بقيمة ما حباه الله به من إمكانات وقدرات.

ثامنًا: القرآن يذكر قارئه دومًا بالله عَزَّوَجَلَّ وبقدره وعظمته وجلاله، ويذكره كذلك بنفسه وصفاته

من خلال تكرار تلك المعاني في كثير من السور. هذا التكرار له دور كبير في ترسيخ تلك المعاني في منطقة اللاشعور، أو اليقين داخل الإنسان؛ مما يعيد تشكيل أفكاره وتصوراته؛ ومن ثم سلوكه وأفعاله التلقائيه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه: ١١٣].

تاسعًا: القرآن وزيادة الإيمان

ومع أهميـــة دور القرآن في التذكير والتوجيه، إلا أن هذا كله لا يكفي لدفع المرء للقيام بمقتضيات ذلك التوجيه، بل لا بد من وجود قوة دافعة تســتثير همته وإراداته للقيام بمقتضى هذا التوجيــه. وهنا يأتي الدور الخطير للقرآن والذي يتمثل في قدرته على التأثير في مشــاعر قارئه واســتثارتها بمواعظه البليغة، وقوة سلطان ألفاظه على النفس؛ مما يزيد الإيــمان، ويولد الطاقة الدافعة للقيام بأعمال البر المختلفة بســهولة ويــسر: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾

[الإسراء: ١٠٧ – ١٠٩].

مــن هنا تتضح لنا أهمية القرآن في اســتقامة العبد على أمــر الله، وتجلببه الدائم بجلباب العبودية له.

لماذا لا ينفعنا القرآن؟

قد يقول قائــل: ولكننا نقرأ القرآن منذ زمن بعيــد، وختمناه عشرات المرات، ولكننا لا نشعر من خلاله بأي تغيير يحدث داخلنا.

نعم، هذا هو حالنا مع القرآن، ومما لا شــك فيه أن القرآن لم يفقد مفعوله وقوة تأثيره: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر: ٢١].

إن المشكلة فينا نحن، لا في القرآن، والســبب الرئيس لذلك أننا لا نتعامل معه على حقيقته كأعظم معجزة نزلت من الســماء، وأن السر الأعظم لهذه المعجزة يكمن في قدرتــه على التأثير في نفس قارئه، وتغييره من أي حــال يكون فيها إلى الحال التي ترضي الله عَزَّوَجَلَّ.

لكننا قد اعتدنا على أن تكون علاقتنا مع القرآن علاقة البحث عن الأجر المترتب على القراءة فقط، دون النظر إلى الانتفاع الحقيقي به، فنقرؤه ونحن غافلون عن مراد خطابه، حتى أننا لا نتعامل معه مثل ما نتعامل مع الجريدة التي نفهم ما نقرؤه منها!

فكيف لنا إذن أن نتأثر به ونحن قد هجرناه، وهجرنا الانتفاع بمعجزته؟!

كيف ننتفع بالقرآن؟!

فإن كنا نريد الانتفاع بالقرآن، واســتخدامه كعلاج فاعل لما نعاني منه من أدواء، فعلينا أن نغــير طريقة تعاملنا معــه، وأن يكون همنا من قراءتــه الانتفاع بمعجزته والدخول في دائرة تأثيره، وهذا يحتاج منا إلى بعض الوســائل العملية المتدرجة التي تُعينُـــنَا -بإذن الله- على العــودة الهادئة للقرآن، وإدارة وجوهنـــا له، والإقبال على مأدبته...

وهناك وسائل عامة للانتفاع بالقرآن، ووسائل خاصة لاستخدام القرآن كعلاج لمرض العُجب وتضخم الذات.

أما الوسائل العامة فهي:

١- الدخول إلى القرآن من بابه الصحيح.

٢- الانشغال بالقرآن.

٣- تهيئة الجو المناسب.

٤- القراءة المتأنية.

٥- التركيز أثناء القراءة والاجتهاد في الإنصات.

٦- التجاوب مع الآيات.

٧- أن نجعل المعنى هو المقصود.

٨- ترديد الآية التي تؤثر في القلب.

٩- تعلم الآيات والعمل بها.

أولًا: الدخول إلى القرآن من بابه الصحيح

لكـي تتم لنا الاستفادة الحقيقية مـن القرآن ويكون دليـلًا يهدينا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وسـببًا يقربنـا إليـه ويصلنـا بـه، ودواءً نستشـفي به مـن أمراضنـا، ومصـدرًا متفردًا لزيـادة الإيـمان في قلوبنـا، وجـلاءً للهمـوم والغمـوم والأحـزان ومنبعًـا صافيًـا لتحصيـل العلـم النافـع.. لكي يتم لنـا كل هذا وغـيره.. لا بد من الدخـول إليه من بابه الصحيح..

إن البـاب الصحيـح -الـذي لا باب غـيره- للانتفاع بالقرآن وتحقيـق مراد الله بنزولـه يسـتلزم الاعتقـاد الجـازم أنـه المصـدر المتفـرد الـذي لا مثيـل لـه لتحصيـل الهدايـة الشـاملة الكاملـة، والشـفاء التـام، والعلـم النافـع، والتغيير الجـذري، وأن يتـم التعامـل معـه بنـاء عـلى هـذا الاعتقـاد، وهو مـا تعـبر عنه عبـارة «الإيـمان قبل القـرآن».. أي: الإيـمان بـأن القرآن هـو المصدر الوحيـد للهداية الشـاملة التامة وأنه لا يمكن تحصيلها بدونه..

.. والإيمان بأن القرآن هو الدواء الناجع المتفرد لشفاء القلب وعودته إلى صحته وفطرته..

.. والإيمان بأن القرآن هو المصدر الأسمى للعلم النافع المقرب إلى الله، والمورث

لخشيته، وأنه لا يوجد مصدر آخر يضاهيه أو يقترب منه..

.. والإيمان بأن القــرآن هو القادر -بإذن الله- على تغيير أي إنســان، ومن أي وضع ســلبي هو فيه إلى الحال الــذي يُرضي الله عَزَّوَجَلَّ، فيلحقــه بصفوف عباد الله الصالحين المصلحين..

.. علينا أن نستحضر هذا المعنى حين ندخل إلى القرآن.. فالغاية من نزول القرآن هو: تحصيل الهداية التامة والشفاء الكامل والتغيير الجذري.. فينبغي أن يكون منطلق علاقتنا بالقرآن مرتبطًــا بهذه الغاية.. ويكون الهدف الأول مــن اللقاء معه تحصيل هدايتــه وشــفائه وتقويمــه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]. والدليل العملي على صحة هذا الإيمان وتلبســنا به هــو مراقبة حالة الترقب واللهفة لتلاوة القرآن، والتعامل معه بنفســية الأمي الشغوف المستعد للتنازل عن تصوراته ومفاهيمه وما فيها من خطأ أو خلط واستسلامه لتصورات ومفاهيم القرآن، وكذلك مراقبة مدى استعداده للعمل بما علم من القرآن..

ثانيًا: الانشغال بالقرآن

بمعنى أن يصبح القرآن هو شــغلنا الشاغل، ومحور اهتماماتنا، وأولى أولوياتنا، ولكي يكون القرآن كذلك لا بد من المداومة اليومية على تلاوته مهما تكن الظروف، وأن نعمل على تفريغ أكبر وقت له.

ثالثًا: تهيئة الجو المناسب

لكــي يقــوم القرآن بعمله في التغيير لا بد من تهيئة الظروف المناسـبة لاسـتقباله، ومــن ذلــك وجــود مــكان هــادئ بعيد عــن الضوضــاء يتم فيــه لقاؤنــا بــه، فالمكان

الهادئ يعين على التركيز وحسن الفهم وسرعة التجاوب مع القراءة، ويسمح لنا كذلك بالتعبير عن مشاعرنا إذا ما استثيرت بالبكاء أو الدعاء.

رابعًا: القراءة المتأنية

علينا ونحن نقرأ أن تكون قراءتنا متأنية، هادئة، مترسلة، وهذا يستدعي منا سلامة النطق وحسن الترتيل، كما قال تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٤] والجدير بالذكر أن سلامة النطق يستدعي منا تعلم أحكام التلاوة وتصحيحها بدون إفراط أو تفريط.

وعلى الواحد منا ألا يكون همه عند القراءة نهاية السورة، ولا ينبغي أن تدفعنا الرغبة في ختم القرآن إلى سرعة القراءة. قال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لا خير في قراءة ليس فيها تدبر.

وقال الحسن: يا ابن آدم كيف يرق قلبك؟ وإنما همتك في آخر سورتك[(١)].

خامسًا: التركيز أثناء القراءة والاجتهاد في الإنصات

علينا أن نجتهد حين نلتقي بالقرآن بحضور الذهن مع آياته، والإنصات التام -قدر المستطاع- لما نقرأ أو نسمع من الآيات، فإذا ما حدث شرود في وقت من الأوقات علينا أن نعيد الآيات التي شرد فيها ذهننا.

.. نعم في البداية سنجد صعوبة في تطبيق هذه الوسيلة بسبب تعودنا على التعامل مع القرآن كألفاظ مجردة من معانيها، ولكن بالمداومة والمثابرة سنعتاد بمشيئة الله القراءة بتركيز وبدون سرحان.

---

(١) مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر (ص: ١٥٠) - مؤسسة الرسالة - بيروت.

ولنتذكر دائمًا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

إن الإنصات هو أعلى درجات تركيز المرء مع الصوت، سواء أكان هذا الصوت يأتيه من مصدر خارجي، أم كان يردده بلسانه، أم يقرؤه بعينه.

فقد يحدث أن يسمع الشخص كلامًا وهو شارد الذهن يفكر في موضوع (ما)؛ مما يجعله لا يستمع لما يتلقاه بالكلية ولا يفهم المراد من الكلام.

وقد يحدث أن يسمع كلامًا وهو يريد سماعه لكنه ليس بصافي الذهن، فهو هنا يستمع للكلام ويعرف محتواه، ولكنه غير مستغرق معه، كأن يفكر في موضوع آخر في الوقت ذاته، أو يستمع إلى كلام آخر، أو يناجي من حوله، كقوله تعالى: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٤٧].

فإذا ما شعر المرء بأهمية ما يسمع أو يقرأ، وكان الكلام مما تشتد حاجته إليه:... تجده يُصغي سمعه وينصت، فينتقل من مرحلة الاستماع إلى مرحلة الإنصات والإصغاء؛ حيث التركيز التام لما يتلقى لدرجة الاستغراق والتوحد مع ما يتلقاه.

ويقص علينا القرآن المجيد قصة الجن حين استمعوا القرآن للمرة الأولى، فقد أدركوا أهميته القصوى، وحاجتهم الماسة إليه فماذا قالوا؟! ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

فحري بنا أن نفعل مثل ما فعلوا حتى ننتفع بالقرآن: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

ولكن في بعض الأوقات قد نبدأ القراءة فنجد أنفسنا وقد غلبها النعاس، وأصبحنا لا ندري ما نقول، فماذا نفعل إذا ما فشلنا في جمع الذهن مع القراءة بعد العديد من المحاولات؟

علينا عندئذٍ التوقف بنية العودة إليها في وقت آخر.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنُ عَلَى لِسَانِهِ، فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ فَلْيَضْطَجِعْ**»[١].

وليكن مقياس استمرارنا في القراءة قول الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «اقرأ القرآن ما نهاك فإذا لم ينهك فلست تقرؤه»[٢].

سادسًا: التجاوب مع القراءة

القرآن خطاب مباشر من الله عَزَّ وَجَلَّ لجميع البشر: لي، ولك، ولغيرنا. هذا الخطاب يشمل ضمن ما يشمل: أسئلة وأجوبة، ووعدًا ووعيدًا، وأوامر ونواهٍ.

فعلينا أن نتجاوب مع الخطاب القرآني بالرد على أسئلته، وتنفيذ أوامره بالتسبيح أو الحمد أو الاستغفار، والسجود عند مواضع السجود، والتأمين على الدعاء، والاستعاذة من النار، وسؤاله الجنة، ولقد كان هذا من هدي رسول الله ﷺ، وصحابته الكرام.

سابعًا: أن نجعل المعنى هو المقصود

البعض منا عندما يشرع في تلاوة القرآن والتفكر في آياته، تجده يقف متمعنًا عند

(١) رواه مسلم (١/ ٥٤٣ برقم: ٧٨٧).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ١٣٣).

كل لفظ فيه مما يجعل التلاوة أمرًا شاقًا عليه، وما يلبث إلا أن يملَّ فيعود أدراجه إلى الطريقة القديمة في القراءة دون فهم ولا تفكر يقود إلى التدبر -بإذن الله.

فكيف لنا إذن أن نقرأ القرآن بتفكر يقود إلى تدبر وسلاسة في الوقت نفسه؟

الطريقة السهلة لتحقيق هذين الأمرين معًا هو أن نأخذ المعنى الإجمالي للآية، وعندما نجد بعض الألفاظ التي لا نعرف معناها، فعلينا أن نتعرف على المعنى من السياق، وهذا ما أرشدنا إليه رسول الله ﷺ حين قال: «**إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ**»[(١)].

وبهذه الطريقة تصبح قراءة القرآن بتفكر صحيح سهلة وميسرة للجميع.

وليس معنى هذا عدم النظر في كتب التفسير ومعاني الكلمات، ولكن لنجعلها في وقت آخر غير وقت القراءة حتى نسمح لآيات القرآن أن تنساب داخلنا وتؤثر فينا.

ثامنًا: ترديد الآية التي تؤثر في القلب

وهذه من أهم الوسائل المعينة على سرعة الانتفاع بالقرآن.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

فالقرآن من أهم وسائل زيادة الإيمان وذلك من خلال مواعظه البليغة التي تستثير المشاعر وتؤججها، فيحدث بذلك التجاوب بين الفكر والعاطفة.

نعم قد تكون لحظات التجاوب والانفعال قليلة في البداية، ولكن بالاستمرار

---

(١) مسند الإمام أحمد (٣٨/ ٤٦٦ برقم: ٢٣٤٨٢).

على قراءة القرآن من خلال استصحاب الوسـائل السابقة ستأتي- بعون الله - تلك اللحظات، فإذا ما جاءت علينا أن نحسن التعامل معها، ونعمل على دخول أكبر قدر من نور الإيمان إلى القلب في هذه اللحظات، وذلك من خلال ترديد الآية التي أثرت فينـا، وعلينا ألا نمـل من ذلك ما وجـد التجاوب، وهذا مـا كان يفعله الصحابة والسلف رضوان الله عليهم.

تاسعًا: تعلم الآيات والعمل بها

فكـما أننا نخصص وقتًا يوميًّا لتلاوة القرآن، علينا كذلك أن نخصص وقتًا آخر بـين الحين والحين، نتعلم فيه عشر آيات من القـرآن ثم نجتهد في حفظها والعمل بما دلت عليه من خلق وسلوك، أو ما اشتملت عليه من أوامر ونواهٍ، ولا ننتقل إلى آيات أخـرى إلا بعد التأكد من ممارسـة العمل بـها في تلك الآيات، وهـذا ما كان يفعله الصحابة رضوان الله عليهم.

جاء في مسـند الإمام أحمد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل» [١].

والجدير بالذكر أن هذه الخطوة في الانتفاع بالقرآن تحتاج قبلها إلى إعادة الثقة في القرآن إلى قلوبنا بقدر معتبر حتى يحسـن بنا الانتفاع بها بإذن الله.. وقد تم تناول هذا بالتفصيل بفضل الله في كتابي: «غربة القرآن وكتاب الطريق الوحيد».

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، المقدمة (١ / ٤) - مكتبة العبيكان - الرياض.

كيفية علاج الإعجاب بالنفس من خلال القرآن

مع كون القرآن شــفاء لكل ما يعاني منه الإنســـان من أمراض، إلا أن له تأثيره الخاص في علاج مرض الإعجاب بالنفس وتضخم بالذات.

فعندمـا يتتبـع القـارئ الآيات التـي تتعلـق بإزالة أسباب العُجـب ومظاهره، ويقـف عندهـا ويتفكر فيهـا، فـإن مدلولاتهـا ومعانيها تنتقـل إلى منطقة اللاشـعور داخـل العقـل، وتشـكل جـزءًا رئيسـيًّا مـن يقينـه؛ ممـا يـؤدي إلى تغيير حقيقـي في تصوراتـه عـن ربه، وعن نفسـه، وعن الكـون المحيط بـه لينطلق السـلوك بعد ذلك منسجمًا مع هذا اليقين.

وهنـــاك موضوعات معينة تم طرحها في الصفحات الســـابقة، علينا أن نتتبعها واحدة تلو الأخرى في رحلاتنا المباركة مع كتاب ربنا، والتي تبدأ من ســـورة الفاتحة وتنتهي بســـورة الناس، ولا يتم الانتقال من موضوع إلى آخر إلا بعد أن يشـــعر المرء بأخذه كفايته منه وعدم وجود جديد يضيفه، وهذا يختلف من شـــخص إلى آخر من حيث كم القـــراءة، المهم هو النتيجة التي نريد أن نصل إليهـــا من تمكن المعنى المراد الوصول إليه من عقولنا وقلوبنا وربطه بواقعنا وأحداث حياتنا.

وهذه الموضوعات هي:

١ - **التعرف على الله القيوم**؛ وقد ســـبقت الإشـــارة إليـــه وإلى أهميته في العلاج -بفضـــل الله ومنته- في الفصـــل الأول من هذا الباب، فعلينـــا أن نبحث في القرآن عن الآيات التي تتحـــدث عن معنى القيومية وأنواعهـــا وصورها وعبودية التوكل والاستعانة بالله المترتبة عليها.

فمـــن صور القيومية: قيام الله عَزَّوَجَلَّ على خلق الإنســـان طورًا طورًا : ﴿ وَلَقَدْ

خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

ومنها قيامه سبحانه على سقايتنا: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ۝٢٢ ﴾ [الحجر: ٢٢].

ومنها قيامه على حفظ السماء مرفوعة بغير عمد: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ [فاطر: ٤١].

ومنها أمثلة قيامه بحفظ أوليائه ورعايتهم كما حدث لأهل الكهف: ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ [الكهف: ١٨].

٢ - التعرف على الله المنعم؛ ومعرفة حقه علينا من شكر لنعمه: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨ ﴾ [النحل: ٧٨].

فكل نعمة أنعم الله بها علينا تستوجب الشكر: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ۝٨٠ ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

فعلينا بالتعرف على نعم الله التي اختصنا بها من خلال آيات القرآن، كنعم الإيجاد من العدم: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٢٣ ﴾ [الملك: ٢٣].

ونعم العافية، ونعم الحفظ، ونعم التسخير: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣].

ونعم الأمن والسـتر، ونعم التوفيق والثبـات والهداية: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١].

ومن جوانب النعم كذلك؛ نعم الاجتباء وسبق الفضل: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

هذا الجانب الأخير له دور كبير في العلاج، لأنه سيشعرنا بعظيم فضل الله علينا بلا أي سـبب منا، فعلى سـبيل المثال: عندما نقرأ الآيات التي تتحدث عن فرعون وقومه وما فعلوه في بني إسرائيل نستشـعر عظيم فضل ربنا علينا أن لم يخلقنا في هذا الوقت، ولم يجعلنا من آل فرعون، وهكذا.

٣ - **عفـو الله أو النـار**؛ فنبحث في القـرآن عن الآيات التي تخبرنـا بأن عملنا وسـعينا لا يستوجب دخول الجنة أو النجاة من النار، فإما عفو الله ومغفرته أو النار، ومن ذلـك قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ١٢﴾ [الملك: ١٢].

فمن خلال تتبع هذا الموضع والذي قبله «التعرف على الله المنعم» تترسـخ لدينا حقيقـة تقصيرنا في حـق الله، وأنه لو طالبنا بحقه -سـبحانه- لهلكنا، مما يدفعنا إلى الاجتهاد في العمل مـع رؤيته بعين النقص والخوف من عـدم قبوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢١٨﴾ [البقرة: ٢١٨].

٤ - **التعـرف على جوانب الفقر إلى الله**؛ ما هي الجوانب التي نحتاج فيها إلى الله لتستقيم حياتنا، وما هي الجوانب التي يمكننا أن نستغني فيها عن الله؟!

لنبحث في القرآن عن إجابة لهذين السؤالين لنخرج بحقيقة راسخة عنوانها: لا غنى لنا عن مولانا طرفة عين، فنردد بيقين: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن الأمثلة لذلك:

- الفقر إلى الله في دوام العافية: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦].
- الفقر إلى رزق الله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك: ٢١].
- فقر العصمة من الكفر: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥].
- فقر العصمة من الفجور: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣].

٥ - **التعرف على حقيقة الإنسان**؛ ليبحث كل منا - من خلال القرآن - عن أصله وحقيقته، وجوانب ضعفه وعجزه وجهله، وما هي حدود ملكه في هذا الكون كما سبق بيانه.

كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [المرسلات: ٢٠].

وقوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨].

وقوله: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤].

٦ - **التعرف على طبيعة النفس**؛ علينا أن نبحث في القرآن عن طبيعة أنفسنا ومدى شحها وطغيانها، وكيف نظلمها حين نتَّبع هواها، ونبحث كذلك عن كيفية

جهادها، ووسائل تزكيتها كقوله تعالى:

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾ [يوسف: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩ ﴾

[الحشر: ٩].

٧ - **كيف ربّى الله رســله وأنبياءه على تمام العبودية له**؛ وعدم رؤية أنفسهم إلا بعين الحــذر والنقص، وكيف كانت التربية القرآنية للرســول ﷺ تركز على أنه عبد لا يملك من أمره شــيئًا، مثله مثل ســائر البشر: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقوله: ﴿ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢ ﴾ [الإسراء: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

٨ - **التعرف عــلى الله الغني الحميد**؛ فنتتبع الآيــات التي تتحدث عن غنى الله عنا، وعن عبادتنا، وأن صلاحنا لمصلحتنا:

﴿ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ ﴾ [الإسراء: ٧].

ونتتبع كذلك صور عبادة الكون لله، ليملأ الحياء أنفســنا مما نقدمه من طاعات قليلة كقوله تعالى:

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

٩ - عـــلاج القرآن لحـــالات الإعجاب بالنفـــس والاغترار بهـــا، والتكبر على الآخرين، من خلال تتبع نماذج مـــن وقعوا في براثن هذه الأمراض، وكيف تعاملت الآيات معهم، كبني إسرائيل الذين زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، ومع ذلك فقد قدم لهم القرآن وصفة العلاج التي تخلصهم مما هم فيه من تذكيرهم بنعمه عليهم كقوله: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [البقرة: ٤٩، ٥٠].

وتخويفهم من عواقب أفعالهم: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [البقرة: ٤٨].

وتدحض مزاعمهم وتكشـــفهم أمام نفوسهم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [البقرة: ٩١].

فهذه تسعة موضوعات من شـــأنها أن تزيل -بعون الله ومدده- الكثير والكثير من مظاهر رؤية النفس واســـتعظامها، فعلينا أن نحســـن التعامل معها، وإعطاء كل موضوع منها حقه من الوقت، ولا بأس من تكرارها لتزداد الفائدة المترتبة على ذلك، والله الموفق.

• • •

الفصل السابع

التعاهد والتربية ودورهما في علاج العُجب

- معنى التربية.
- صور التربية.
- التربية الذاتية.
- تربية الأبوين لأبنائهما.
- التربية مع الآخرين.

التعاهد والتربية

معنى التربية

من معاني التربية أنها «تحويل النظريات إلى سلوك» وهذا بلا شك لن يتحقق إلا من خلال دوام التربية، وحسن المتابعة.

فكل ما قيل في الصفحات السابقة وغيرها سيظل حبرًا على ورق ما لم تتم ترجمته إلى سلوك عملي من خلال التعاهد والتربية.

يقــول الدكتور جودت ســعيد: الأمر لا يقتصر على وجود الفكرة فحســب، بل يتعدى ذلك إلى تحويل الفكرة إلى إيمان يتدخل في سلوك الإنسان، فوجود الفكرة بشكل أوَّلي لا يستلزم إيمان الناس بها إيمانًا يظهر على سلوكهم ويدخل في لا شعورهم(١).

إذن فالاقتناع بمثل ما في هذه الصفحات من أفكار لا يكفي، بل لا بد من التربية عليه.

صور التربية

وصور التربية التي يمكننا ممارستها هي:

أولًا: التربية الذاتية.

ثانيًا: تربية الأبوين لأبنائهما.

ثالثًا: التربية مع الآخرين.

---

(١) كن كابن آدم لجودت سعيد – دار القلم – دمشق.

أولًا: التربية الذاتية

تربية الفرد لنفسه وتعاهدها أولًا بأول أمر لا بد منه لمن يريد دوام الاستقامة على أمـر الله، ولا يكفي من الواحد منا عدم رضاه عـن واقعه، أو اقتناعه بأهمية تغيير ما بنفسه من تضخم للذات وشعور بالتميز على الآخرين وفقط، بل لا بد من العمل الدؤوب لتغيير ذلك الواقع.

المسئولية فردية

إن المسئولية أمام الله فردية، وسيدخل كل منا القبر وحده، وسيسأله فيه الملكان وحده، وسيبعث وحده، وسيحاسب أمام الله وحده: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٥].

فما قيمة ما يقوم به العبد إن لم يكن له دور في صلاحه وتقواه وقربه من الله؟!

ما قيمة أن نكون سببًا في دخول الناس الجنة، ويكون مصيرنا النار والعياذ بالله؟!

إن هذا ليس معناه الانعزال عن الناس، وترك خدمتهم وإصلاح شأنهم، ولكنه جرس إنذار لنا جميعًا أن لا ننسى أنفسنا.. فكما قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ، مَثَلُ الْفَتِيلَةِ تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَتَحْرِقُ نَفْسَهَا**»[(١)].

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٢/ ٣١٢ برقم: ٨٨٠) طبعة المنهاج، وعزاه للطبراني في معجمه الكبير.

ويقول الرافعى: إن الخطأ أكبر الخطأ أن تنظم الحياة من حولك، وتترك الفوضى في قلبك(١).

ولكي لا يحدث هذا؛ لا بد من أن يكون لنا جميعًا جهد خاص مع أنفسنا، مهما كانت شواغلنا، وإلا وقعنا فيما حذَّر منه رسول الله ﷺ في الحديث السابق ذكره.

نقطة البداية

قد يقول قائل: إنني مقتنع بكل ما قيل في الصفحات السابقة، وأرى في نفسي مظاهر التضخم، وأتمنى التخلص منها، ولكني لا أجد همة لذلك، فماذا أفعل؟!

هذا هو حالنا جميعًا -إلا من رحم الله- ولا بديل أمامنا إلا بالاستعانة الصادقة بالله عَزَّوَجَلَّ ليمدنا بمدد من عنده يعيننا به على أنفسنا، ولنعلم جميعًا أنه على قدر حجم الإناء الفارغ الذي سنطلب من الله ملأه سيكون المدد منه سبحانه، فالإمداد بحسب الاستعداد.

فلنلح ونلح عليه سبحانه بأن يتولانا برحمته، ويلحقنا بالصالحين، ويعيننا على معرفته، ومعرفة أنفسنا، وأن يجعل كلًا منا عند نفسه صغيرًا، وأن يؤتي نفوسنا تقواها و...

ومع هذا الإلحاح الدائم والمستمر على الله عَزَّوَجَلَّ، فإن هناك بعض الأعمال التي من شأنها -إذا ما أحسنا التعامل معها- أن تولد القوة الدافعة، والطاقة اللازمة لاستثارة الهمة والعزيمة للقيام بتنفيذ الوسائل السابقة...

---

(١) وحي القلم للرافعي (٢ / ٤٢).

من هذه الأعمال:

- الخوف من الله.
- معايشة القرآن.
- قيام الليل.
- الإنفاق في سبيل الله.
- القراءة في سير الصالحين.

الخوف من الله

للخوف من الله دور عظيم في إيقاظ القلب من غفلته. قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ**»[(١)].

جاء في جامع الأصول لابن الأثير: الإدلاج -مخفف- السير من أول الليل والمراد بالإدلاج هنا: التشمير في أول الأمر، فإن من سار من أول الليل كان جديرًا ببلوغ المنزل.

وقال ذو النون: الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق.

إن الخوف من الله يعد بمثابة السياط التي تقع على القلب فتوقظه من رقدته، وتستثيره للانتباه، والتشمير للسفر إلى الله، وبدونه فالقلب راقد، لا يستشعر أهمية شيء.

---

(١) رواه الترمذي: (٤/ ٦٣٣ برقم: ٢٤٥٠) في صفة القيامة -باب من خاف أدلج- وقال: حديث حسن غريب، ورواه الحاكم: (٤/ ٣٤٣) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

إنه أفضل وسيلة تؤهل القلب لحسن استقبال التوجيهات وتنفيذها، كما قال تعالى: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ١٠ ﴾ [الأعلى: ١٠].

وسائل استجلاب الخوف

أهم وسائل استجلاب الخوف من الله وزيادته في القلب «كثرة ذكر الموت»، والتوقع الدائم لقدومه، قال رسول الله ﷺ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ: الْمَوْتِ، فَإِنَّهُ مَا ذَكَرَهُ أَحَدٌ فِي ضِيقٍ إِلَّا وَسَّعَهُ، وَلَا ذَكَرَهُ فِي سِعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَهَا عَلَيْهِ**»[1].

ولقد اشتكت امرأة إلى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قسوة قلبها. فقالت: أكثري من ذكر الموت يرق قلبك، ففعلت فرق قلبها.

ومن الوسائل المعينة للتذكر الدائم للموت: زيارة المقابر، وتغسيل الموتى، واتباع الجنائز، وكتابة الوصية، ودوام مطالعتها.

ومنها أيضًا: الاستماع إلى المواعظ والقراءة في كتب الرقائق.

معايشة القرآن

مع كون القرآن دواءً ربانيًّا شافيًا لكل أمراض القلوب، ووسيلة أكيدة لتزكية النفوس، إلا أن له كذلك قدرة عجيبة على استثارة المشاعر، وتوليد القوة الدافعة للقيام بالأعمال.

من هنا تشتد الحاجة إلى معايشة القرآن، والمداومة على قراءته، والانتفاع به، والدخول في دائرة تأثيره كما تم بيانه في الفصل السابق.

---

(١) ابن ماجة (برقم: ٤٢٥٨)، والترمذي (برقم: ٢٣٠٧)، وابن حبان (برقم: ٢٩٩٣)، ومسند البزار (برقم: ٦٩٨٧).

فلنكن دومًا مع القرآن ولنسلم له أزمّتنا، ولنجعله في أعلى سلم أولوياتنا، واهتماماتنا.

قيام الليل

قيام الليل هو مدرسة الإخلاص، ومزرعته التي تبذر فيها بذوره، لتجنى ثمارها بالنهار: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩ ﴾ [الإسراء: ٧٩].

فيه يتذكر كلٌ منا أصله وعبوديته لربه.

وهو من أفضل الوسائل المولدة للطاقة والمثيرة للهمة.

إنه دواء يومي لا بد من تناوله وإلا ضعفت العزيمة وفترت الهمة. ولكي تؤتي هذه الوسيلة ثمارها لا بد من معايشة القرآن في القيام، والتفكر فيه والتجاوب معه، وترديد كل آية تؤثر في القلب.

وفى السجود تكون المناجاة من ثناء على الله، وبث الشوق إليه، واستغفاره، واسترحامه.

نشكو إليه أنفسنا، وعدم قدرتنا على التعامل معها... نشهده بأننا لا غنى لنا عنه، ونلح عليه ألا يتركنا لأنفسنا ولو طرفة عين.

دوام الإنفاق في سبيل الله

دوام الإنفاق في سبيل الله له دور كبير في تيسير التعامل مع النفس، فمن خلاله يتم تطهيرها من الشح المجبولة عليه، فتسلس قيادتها: ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣].

فلنستخدم هذا الدواء السهل، ولنداوم كل يوم، ولنبكر في إخراج الصدقة حتى نحظى بدعوة الملكين، ونستفيد بها طوال اليوم. قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**»(١).

القراءة في سير الصالحين

من الأمور التي تستثير الهمم وتولد الطاقة: معرفة أحوال الصالحين وكيف كان تعاملهم مع أنفسهم مع شدة خوفهم من ربهم.

فلنقرأ في سير هؤلاء الأخيار، ومن الكتب المرشحة لذلك:

الزهد للإمام أحمد بن حنبل، الزهد لابن المبارك، التواضع والخمول لابن أبي الدنيا، صفة الصفوة لابن الجوزي.

التربية الوقائية

ومع اهتمام كل منا بنفسه، والحرص الدائم على تعاهدها، وإعطائها الدواء المناسب لعلاجها مما تعاني منه، فإن هناك أمورًا ينبغي عملها كتربية وقائية. فكما قالوا: تجفيف المنابع أولى من بناء السدود.

فهذه التربية الوقائية: حماية للمرء من نفسه وعدم تعريضها لما يشق عليه مجاهدتها فيه.

---

(١) رواه البخاري: (٢/ ١٤٧برقم: ١٤٤٢)، كتاب الزكاة - باب: ٢٧، ومسلم: (٢/ ٧٠٠، برقم: ١٠١٠).

أما الوسائل المقترحة لهذه التربية فهي:

■ علينا أن نبدأ بهذا العلم -علم التزكية وكيفية استصغار النفس- قبل أي علم آخر، ونطبق ما يدل عليه قدر استطاعتنا، مع الأخذ في الاعتبار أن إيقاظ الإيمان في القلب هو نقطة البداية، ثم يأتي هذا العلم ليكون صنوه الذي يصاحبه... ولنعلم جميعًا أن العلم بالله هو أشرف العلوم على الإطلاق، فمن أراد العلم الحقيقي فليبدأ بهذا العلم الذي يعرف العبد بربه فيخشاه، وبنفسه فيحذر منها، ثم يأتي العلم بأحكام الله بعد ذلك لمن شاء ليكون صاحبه عالمًا ربانيًّا. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨].

■ عدم طلب المسئولية أو استشرافها، وكذلك عدم تقديم النفس للقيام بعمل ما. كما قال رسول الله ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا**»(١).

ففى الحديث ما يدل على عدم تمني لقاء العدو لما فيه من الإعجاب والاتكال على النفس، والوثوق وقلة الاهتمام بالعدو، وكل ذلك يباين الاحتياط والأخذ بالحزم(٢).

■ ومن صور التربية الوقائية؛ قول الأستاذ مصطفى السباعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا أنعم الله عليك بموهبة لست تراها في إخوانك فلا تفسدها بالاستطالة عليهم بينك وبين نفسك، وبالتحدث عنها كثيرًا بينك وبينهم، فإن نصف الذكاء مع التواضع أحب إلى

---

(١) رواه البخاري: (٤/ ٣٠٢ برقم: ٣٠٢٥)، كتاب الجهاد والسير، باب لا تمنوا لقاء العدو، ومسلم: (٣/ ١٣٦٢برقم: ١٧٤٢)

(٢) عون المعبود في شرح سنن أبي داود: (٧/ ٢١١).

قلوب الناس وأنفع للمجتمع من ذكاء كامل مع الغرور[١].

■ لنحرص على الســاعات الأربع التي نصحنا بها نبي الله دواد عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: حق على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات:

١. ساعة يناجي فيها ربه عَزَّوَجَلَّ.

٢. وساعة يحاسب فيها نفسه.

٣. وساعة يفضي فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، ويصدقونه، عن نفسه.

٤. وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات وإجمام القلوب.

وحق على العاقل أن يعرف زمانه ويحفظ لسانه، ويقبل على شأنه[٢].

■ من وصايا السلف: لا تُـخرج كل ما عندك... فقد كانوا يكرهون إذا اجتمعوا أن يخرج الرجل أحسن حديثه، أو أحسن ما عنده.

وكان عمر بن عبد العزيز يقول: إني لأدع كثيرًا من الكلام مخافة المباهاة[٣].

• • •

(١) هكذا علمتنى الحياة للسباعي.
(٢) الزهد لابن المبارك: (١/ ١٠٥).
(٣) المصدر السابق.

ثانيًا: تربية الأبوين لأبنائهما

من صور التربية: تربية الأبوين لأبنائهما على المعاني السابقة، فهما أهم مصدر للعلم والتلقي بالنسبة إليهم.

فعلى قدر اهتمامات الأبوين تكون اهتمامات الأبناء.

وعلى قدر ما يظهر على الأبوين من سلوكيات يكون كذلك الأبناء.

وإن كنا لم نجد من يغرس فينا معاني العبودية لله، وربط أحداث الحياة به سبحانه ونحن صغار، فلنحرص على عدم تكرار ذلك مع أبنائنا، ولنعمل على تربيتهم على المعاني السابقة بأسلوب يتناسب مع سنهم.

ومن أهم ما ينبغي أن يحرص عليه الأبوان في تربيتهما لأبنائهما.

القرآن أولًا

بمعنى أن تكون معاني القرآن وحدها هي التي تشكل البيئة التي يتربى فيها الابن وينمو... لماذا؟!

حتى تتشكل تصوراته، ويقينه بطريقة صحيحة، فينسجم سلوكه بعد ذلك مع هذه التصورات فيما يحبه الله ويرضاه.

ولقد كان الصحابة -رضوان الله عليهم- شديدي الحرص على هذه الوصية لمن بعدهم.

تأمل معي هذه الوصية لعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التي يقول فيها: جردوا القرآن ليربو فيه صغيركم، ولا ينأى عنه كبيركم، فإن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة.

قال شعبة أحد رواة هذا الأثر: فحدثت به أبا التياح وكان عربيًّا فقال: نعم أمروا أن يجردوا القرآن. قلت له: ما جردوا القرآن؟ قال: لا يخلطوا به غيره[1].

وليس المقصد من ربط الأولاد بالقرآن وتفرغهم له في بداية نشأتهم أن يكون الاهتمام بلفظه فقط، بل بلفظه ومعانيه، كما قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩].

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾

[النحل: ٤٤].

فالاهتمام باللفظ فقط لن يكسب الفرد أيةَ معانٍ، بل بالعكس سيرسم القرآن في ذهنه على أنه ألفاظ لا معنى لها، ويُعوِّدُه القراءة بدون تفكير ولا تأثر.

إن بناء اليقين الصحيح عند أبنائنا لمن أهم صور التربية الصالحة لهم، وسيعود نفعه -بمشيئة الله- عليهم وعلى أسرهم وأمتهم، والقرآن كفيل بذلك إذا ما أعطينا معانيه جُل اهتمامنا، وربطنا بينها وبين الواقع، وجعلنا تشجيعنا لأولادنا مرتبطًا بمدى تعلمهم المعاني الإيمانية من القرآن وتطبيقها على أنفسهم.. والخطوة الأولى في ذلك أن نستحثهم على فهم ما يقرؤونه من القرآن كما يجتهدون في فهم أي شيء آخر يقرؤونه.

---

(١) فضائل القرآن للفريابي: (ص: ١٥١، ١٥٢).

ربط أحداث الحياة بالله

ومع أهمية التركيز على القرآن لبناء اليقين الصحيح عند أبنائنا وتعريفهم بربهم وبأنفسهم، علينا أن نربط أحداث الحياة التي تمر بنا بالله عَزَّوَجَلَّ.

فنربط النعم بالمنعم -سبحانه- ونعوِّدهم على حمد الله بعد كل نعمة، وسجود الشكر الفوري بعدها.

وأن نمحو من قاموسهم كلمات: أنا، لي، عندي (مجردة) بل نقرنها بالله عَزَّوَجَلَّ وفضله.

مثل: بفضل الله لي كذا.. بكرم الله عندي كذا.. بتوفيق الله استطعت أن أفعل كذا...

ونعلمهم كذلك كيف يستخرجون نعم الله عليهم من خلال قراءتهم للقرآن، وكيف يتعرفون عليها من مجريات الحياة وأحداثها اليومية.

ضعف الإنسان وعجزه ومدى احتياجه إلى الله عَزَّوَجَلَّ

فنثبت لهم هذه الحقيقة من خلال مواقف الحياة التي يتعرضون لها، وأننا جميعًا بالله لا بأنفسنا، ولا نستطيع أن نستغني عنه سبحانه ولو لطرفة عين.

الدنيا دار امتحان والملك لله

فنعلمهم بأن الغنى ليس كرامة، والفقر ليس إهانة، بل كلاهما مواد امتحان، نمتحن فيهما، وعلينا بالشكر عند العطاء، والصبر عند المنع، ليترسخ لديهم بأن الغني ليس أفضل من الفقير بغناه، ولا الفقير أقل شأنًا من الغني بفقره، فالكل في امتحان، وعلينا كذلك تكرار حقيقة أن الملك كله لله، فلا يوجد لأحد على ظهر الأرض ملك ذاتي ولو مثقال ذرة.

التواضع

فنمارس معهم صـور التواضـع، ونحببهم في الجلوس مع المسـاكين والأكل معهم... ونعوِّدهم على قبول الحق من أي إنسان، وخفض الجناح للمؤمنين، والقيام على خدمة الناس...

ربط المدح بتوفيق الله

للتشجيع دور كبير في بناء الشـخصية القوية كما سيأتي بيانه، ومع ذلك فعلينا أن نربط عبارات التشـجيع بتوفيق الله وفضله، ولا نسرف في مدحهم حتى لا نشـعرهم بالاستعلاء على غيرهم، وعند وجود مواهب خاصة لدى بعضهم علينا أن نُعوِّدَه على المبالغة في الشكر والتواضع لله عَزَّوَجَلَّ، وعدم الاستطالة بهذه المواهب على أصدقائه...

ومع هذا كله علينا أن نقدم لهم شخصية الرسول ﷺ كقدوة ونموذج تمثلت فيه هذه المعاني؛ مما يزيدهم حبًّا له.

فلو أخذت منا هذه الجوانب الإيمانية التربوية الاهتمام الكافي، فسنكون -بفضل الله- قـد قدمنا لأبنائنا أفضل هديـة وأجل تربية، ولم لا ونحـن بذلك نربيهم على العبودية لله عَزَّوَجَلَّ، والتعلق به سبحانه، والإخلاص له وحده؟!

ولعل سـور (الفاتحة - والناس- والفلق- والإخـلاص) تجمع أغلب هذه المعاني، حيـث أن موضوعها الأول هو ربوبية الله عَزَّوَجَلَّ، والاسـتعاذة به سـبحانه من الشرور، والاستعانة به سبحانه على كل الأمور، فلو رسَختْ هذه المعاني في نفوس أبنائنا منذ الصغر بحق فتُعَد -بفضل الله- قاعدة تربوية إيمانية عظيمة يُبنى عليها بعد ذلك باقي المعاني.

• • •

ثالثًا: التربية مع الآخرين

من طبيعة الإنســـان أن فيه إقبالًا وإدبارًا، وهمة وفتورًا، ففي وقت نشاطه وهمته تجـده يريد إنجاز كل شيء في أقصر وقت، وفى وقــت فتوره وإدباره تراه متثاقلًا عن القيام بالكثير من الأعمال التي كان يقوم بها قبل ذلك بسهولة ويسر.

من هنا تشـتد الحاجة إلى وســيلة تنهض بالهمم، وتعين الواحــد منا دومًا على الاستمرار في القيام بالوسائل السابقة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن النسيان من طبع الإنسان، ولكم سمعنا وقرأنا من نصائح وتوجيهات، كان لها أبلغ الأثر في نفوسنا، وعزمنا وقتها على القيام بمقتضياتها من أعمال، وبمرور الوقت ضعفت الهمة، ونُسِيَ التوجيه.

فما العمل لتلافي هذه العقبات ونحن نسير في طريق إزالة أصنامنا؟!

الحل العملي هو حسن تطبيق قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف: ٢٨].

الآية المباركة تدلنا على أهمية حبس النفس في طاعة الله من خلال الوجود في بيئة طيبة، وصحبة صالحة يتم فيها التعاهد: ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٨].

لا بد إذن لكل من يريد الاســتمرار في جهاد نفسه أن يتواجد في محضن تربوي وصحبة صالحة، يتربى فيهما على المعاني السابقة وغيرها.

التربية هي عمل الرسل وأتباعهم

إن قضية تغيير ما بالنفس ووضعها في قالبها الصحيح لمن أهم الأمور التي ينبغي أن يبذل فيهــا الجهد، وهي لن تتم بالمحاضرات والكتب فقط، ولكن بدوام التوجيه والتعاهد والتربية؛ لذلك نجد أن من مهام الرسل تزكية نفوس أتباعهم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ [الجمعة: ٢].

وهذا ما فعله رسولنا الحبيب ﷺ، فلم يكن يكتفي بتعليم أصحابه بل كان يقوم على تربيتهم وتعاهدهم كذلك... انظر إليه ﷺ كيف كان غضبه من أبي ذر عندما عيَّر بلالًا بســواده، وتأمل كيف كان قدوة لأصحابه في التواضع.. فقد ســئلت السيدة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: ما كان رسول ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يرقع الثوب، ويخصف النعل، ونحو هذا[١].

وفى غــزوة أحد أنه ﷺ رأى أبــا دجانة يتبختر بين الصفين. فقال: «**إِنَّهَا مِشْــيَةٌ يَبْغَضُهَا اللهُ إِلَّا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ**»[٢].

مواقف تربوية

وجاء من بعده ﷺ الصحابة رضــوان الله عليهم، وقد شربوا مشربه، وتعلموا طريقته، فقد عاشوا في ذلك الجو التربوي الفريد، واستنشقوا هواءه، فكان كل واحد منهم يحرص على أخيه ويفعل ما فيه فلاحه، انظر إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ ومدى

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٤٣/ ١٧٢ برقم: ٢٦٠٤٨).

(٢) رواه الطبراني: (٧/ ١٠٤برقم: ٦٥٠٨)، وأورده المباركفوري في الرحيق المختوم (ص: ٣٠١).

خوفه الشـديد على خالد بن الوليد وفتوحاته المستمرة وافتتان الناس به، فكان قرار عزله من إمارة الجيش حرصًا عليه.

واستأذنه تميم الداري أن يقص على الناس فأبى، وقال: إنه الذبح.

ولقد أتى أبو أمامة على رجل في المسـجد وهو سـاجد يبكي في سجوده ويدعو ربه، فقال له: أنت أنت لو كان هذا في بيتك[١].

وهذا ابن المبارك يسـأله بعض إخوانه ذات ليلة وكانوا على ثغر من ثغور القتال يتذاكرون في مسـائل العلم: أترى يا أبا عبد الرحمن أن في أعمال البر ما هو أرضى لله تعالى مما نحن فيه؟ قال: نعم. رجل يسعى على عياله، قام من جوف الليل، يتفقد حال صبيته، ويطمئن إلى راحتهم وأغطيتهم.

يقول البوطي تعليقًا على هذا الخبر: ولا يخامرني شـك في أن ابن المبارك إنما قال هذا كي لا تزهو بالسائل نفسه بما هو فيه من الرباط على الثغر مع العكوف على العلم، فيرى أنه قد أتى بذلك ما لم يعطه أحد غيره[٢].

فلا بد إذن لمن ينشـد الصلاح لنفسـه أن يحيطها بجو تربوي من خلال صحبة صالحة من النصحاء الذين يوجهونه وينصحونه ويتعاهدونه.

دور المحاضن التربوية في العلاج

مما سـبق يتبين لنا أهمية الجو والمحضن التربوي للفرد ليتـم فيه تربيته وتكوينه تكوينًا متكاملًا.

(١) الزهد لابن المبارك: (ص: ٥٠).

(٢) شخصيات استوقفتني للبوطي - دار القلم - دمشق.

فيتربى من خلالها على التواضع، واستصغار النفس، واستقلال ما يقدمه من أعمال.

وفيها يتعلم كيف يغلق الأبواب أمام إلحاح نفسه عليه كي يحمدها أو يستعظمها.

ومن خلالها يتعلم كيفية الانتفاع بالقرآن، واستخدامه كعلاج لتضخم الذات.

وفي فترة التكوين يكون الاهتمام الشديد بالتربية الإيمانية مع التزكية جنبًا إلى جنب، وهذا يستلزم الهدوء وإعطاء هذه الفترة الفرصة الكافية ليكون النتاج صالحًا: ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٩].

فلا تَصَدُّر أو تَقَدُّم للأمام قبل الأوان، كما قال الشافعي: إذا تصدر الحدث -صغير السن- فاته علم كثير.

وجود الأكفاء وتوظيف الإمكانات

وفي المحاضن التربوية يجد المرء حوله من هم أحسن منه كفاءةً وعلمًا، فلا يرى نفسه صاحب الموهبة الفذة، وأنه لم تلد النساء مثله.

وفيها يكون الزاد الإيماني الذي يُولِّد الرغبة و يستثير الهمة للقيام بتنفيذ وسائل التزكية، واستصغار النفس.

ومن خلالها يُضبط الفهم الصحيح، فيُعطي كل ذي حق حقه، ويتعلم كيف يرتب أولوياته، فلا يكفي للعاقل أن يعلم الخير من الشر، بل لا بد أن يتعلم خير الخيرين وشر الشرَّين[١].

---

(١) مجموع الفتاوى: (٢٠/ ٥٤).

وفي المحاضـــن التربوية: يتم توظيف الإمكانات لخدمـــة الدين مع مراعاة عدم التســبب في تضخيم أحد عند نفســه، وذلك من خلال عدم تعريض الأشـــخاص للأضـــواء قبل أن يتم تكوينهم تكوينًا متكامـــلًا يركز على الإيمان العميق الذي يُحيي القلوب، وكذلـــك تزكية النفوس وتربيتها على لـــزوم الصدق والإخلاص، ورؤية فضل الله في كل خير نفعله.

ومن خلالها تتبدل المواقع كل فترة ليتعود الفرد على العطاء دون نظر لمنصب أو مكانة كما قال رســـول الله ﷺ: «**طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٌ بِعِنَانِ فَرَسِـــهِ فِي سَبِيلِ اللهِ أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ...**»[1].

فلنبحث عن تلك الصحبة الصالحة والمحاضن التربوية؛ لتكون نعم العون على إخلاص العمل لله عَزَّوَجَلَّ.

• • •

---

(١) رواه البخـاري: (٣/ ٢٩٣ برقـم: ٢٨٨٧) كتـاب الجهـاد والسـير بـاب الحراسـة فـي الغـزو في سبيل الله.

الفصل الثامن

شبهات يجب أن تُزال

- **الثقة بالنفس.**
- **التشجيع والتقدير.**
- **العزلة.**
- **قول يوسف** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

شبهات يجب أن تُزال

هنــاك بعض الأمور التــي تلتبس علينا فنشــعر بالتناقض بينهــا وبين مفهوم استصغار النفس وإزالة صور الكبر وتضخم الذات.

ومن أهمها:

١. مفهوم الثقة بالنفس، وتعارضه مع ضرورة استصغارها.

٢. عبارات التشجيع والتقدير وتعارضها مع خطورة المدح.

٣. القيام على خدمة الناس والعمل للإسلام وتأثيره السلبي على النفس.

٤. كراهية تزكية النفس وتعارضها مع ما فعله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

١- مفهوم الثقة بالنفس، وتعارضه مع ضرورة استصغارها

مما ينبغي أن يعتقده المســلم أنه لا يوجد ملك حقيقي لأحد في هذا الكون إلا الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١٠٧].

فكل شيء تراه ملك له ســبحانه، ولا يملك من سواه أي شيء ولو حتى مثقال ذرة: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سبأ: ٢٢].

ولقــد أعطى الله عَزَّوَجَلَّ لكل عبــد من عباده بعض الإمكانات ليســتخدمها في مشوار حياته الدنيوية، ينتفع بها، ويُمتَحن فيها. فأعطى البعض صحة، ذكاء، قوة في العضلات وهكذا، وأعطى الآخر مالًا، أولادًا، سرعة الحفظ والاستيعاب.

هذه الإمكانات والأسباب لا توجد لها قدرة ذاتية تكفل لها قيام بالعمل الذي يريده منها صاحبها.

بمعنى أن الماء سبب للإرواء، ولكنه لا يستطيع ذلك إلا إذا أمده الله بالقدرة على ذلك، والدواء لا يسبب الشفاء إلا إذا أتته الفاعلية من الله عَزَّوَجَلَّ.

والساق وما تحتويه من عضلات وأعصاب وعظام لا تستطيع حمل الجسم والسير به بدون المدد الإلهي الآني.

وماء زمزم فيه إمكانية الشفاء؛ هذه الإمكانية تحتاج إلى تفعيل من الله عَزَّوَجَلَّ لتتم، وهكذا في كل ما معنا من إمكانات وأسباب؛ لا قيمة لها بدون المدد الإلهي. فالنار التي هي سبب للإحراق هي النار التي سُلِبت تلك الخاصية عندما أُلقِي فيها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل إنها مُدت بفاعلية أخرى عكس فاعليتها الطبيعية المألوفة: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

المفهوم الصحيح للثقة بالنفس

فإن كان المقصد من مفهوم الثقة بالنفس هو الثقة بوجود الإمكانات والأسباب التي حبانا الله إياها فهي ثقة محمودة، ما دمنا نربطها بالله عَزَّوَجَلَّ، وينبغي أن يتربى عليها الفرد ليصبح قوي الشخصية، أما عدم تعرفه على ما معه من إمكانات، ومن ثم عدم ثقته في وجودها، فإن ذلك من شأنه أن يُنشئه فردًا مهزوز الشخصية لا يقدر على اتخاذ قرار...

ومثال ذلك لو أن شابًّا من الشباب أراد الخروج في نزهة مع أصدقائه، فجهزت له أمه حقيبة فيها طعام وشراب وأدوية... وكل ما يحتاجه في نزهته. وهذا الشاب أخذ الحقيبة ولم يحاول التعرف على ما فيها، وعندما اقترب موعد الغداء شعر

بالاضطـــراب، فكل أصدقائـــه أخرجوا ما معهم من طعام وهـــو يظن أنه ليس معه طعـــام، وزاد حرجه وضيقه عندما بـــدؤوا في الأكل والجميع يريد إعطاءه مما معهم. هذه الحالة التـــي وصل إليها ما كانت لتحدث لو أنه تعـــرف على ما في حقيبته، وفي الوقت نفسه فقد يأتيه أحد أصدقائه بعد أن يرى عليه أمارات الحياء والحرج، ويطلب منه أن يفتش في حقيبته لعله يجد شيئًا. وبالفعل يجد الطعام لتزول علامات الاضطراب والضيق ويحل محلها الفرح والسرور.

إذن فكل ما عمله صديقه هو مساعدته في التعرف على ما معه من طعام.

فالثقة المحمودة بالنفس هي الثقة بما معنا من إمكانات حبانا الله إياها، فشخص حباه الله ذكاء لكنه يشك في وجوده لديه. هذا الشخص بلا شك لن يحاول استخدام هذا الذكاء.

وآخـــر أعطـــاه الله قوة في العضـــلات، أو قدرة عـــلى التحمـــل، أو موهبة من المواهب... هذه الأشـــياء لن يستخدمها صاحبها إلا إذا أيقن بوجودها، وهذا يحتاج إلى من يبني له ثقته بنفسه، أي ثقته بما حباه الله.

ماذا فعل ذو القرنين؟

فالثقة بالإمكانات التي حبانا الله إياها محمودة ومطلوبة لبناء الشخصية القوية، التي تحسن اســـتخدام ما معها، كما فعل ذو القرنين عندما طلب منه قوم من الأقوام القيام ببناء سد يفصل بينهم وبين يأجوج ومأجوج، ووعدوه بأجر كبير نظير ذلك. لم يقم ذو القرنين ببناء الســـد بمفرده، بل اســـتشار عزائمهم وأرشدهم إلى ما معهم من إمكانات، فكانوا نعم العون في بناء هذا الســـد: ﴿ قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى

خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [الكهف: ٩٤ - ٩٦].

ومع هــذه الثقة بما معنا من إمكانات علينا أن نربط فاعليتها بالله عَزَّوَجَلَّ، فالذكاء مرهون بالمدد الإلهي المستمر، والذاكرة القوية كذلك.

فالله هو الذي ينطقنا من خلال اللســان، والأحبال الصوتية، ولو شاء ما أنطقنا مع وجود هذه الأسباب، والله هو الشافي والدواء وسيلة لذلك، ولا قيمة لهذا الدواء بدون الله عَزَّوَجَلَّ وهكذا.

الغرور

أما الثقة المذمومة بالنفس فهي الثقة بما عند الفرد من إمكانات ونســبة فاعليتها لنفســه لا إلى الله؛ فهو يرى نفســه أنه قوي بعضلاته يستطيع مصارعة أي فرد في أي وقت، أو أنه ذكي يستطيع حل أي مسألة رياضية في أقل وقت، أو أنه مفاوض ماهر يستطيع الحصول على أحسن العروض ولا ينسب ذلك لله، ويعتمد على قدرته الذاتية على تفعيل إمكاناته متى شاء... وهذا هو الغرور.

فالغرور لغةً هو الخداع، والشخص المغرور هو الذي ينخدع بما معه من إمكانات وينسبها لنفسه ولا ينســبها لله عَزَّوَجَلَّ، تمامًا كما فعل صاحب الجنتين: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦].

وعندمــا رآه صاحبه وقد تلبــس به الغرور قال لــه ناصحًا: ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف: ٣٧ - ٣٩].

إنــه بهذه العبارات ذكره بأصله وحقيقته، فابــن التراب ماذا يملك؟! ومن أين جـاء بالمال؟! فهــذه الجنات ملك لله، وهو الــذي حباه إياها ولو شــاء لمنعها عنه: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢ ﴾

[الكهف: ٤٠ – ٤٢].

إذن فالثقة بالنفــس بمفهومها الصحيح –التعرف على ما لدي من مواهب، مع ربــط فاعليتها بالله عَزَّوَجَلَّ– مطلوبة ولا تتنافى مع ضرورة اســتصغار النفس بالمفهوم الذي تم بيانه في صفحات هذا الكتاب، بل إنها تتوافق وتتناغم معه.

٢ - عبارات التشجيع وتعارضها مع خطورة المدح

من وســائل بناء الثقة بالنفس عند أي إنســان –وبخاصة الأطفال– استخدام عبارات التشــجيع والثناء والمكافآت عند النجاح في القيام بالأعمال، وهو ما يسميه علماء التربية: التعزيز الإيجابي.

وهذا –بلا شك– له دور كبير في إكساب الفرد ثقة بنفسه، وفي الوقت نفسه له مخاطر كبيرة تترتب على التأثير السلبي للمدح في نفس متلقيه، فكيف يتم التوفيق بين الأمرين؟!

عندما تكون عبارات التشــجيع والثناء موجهة للشخص دون ربطها بالله عَزَّوَجَلَّ وبتوفيقه ومدده، فهنا تكون الخطورة البالغة التي تُضخم الذات وتَبني الصنم.

أما إذا ما اســتخدمت تلك العبارات في وقتها المناســب مع ربطها بالله عَزَّوَجَلَّ، والمبالغة في ذلك، وأنه لولا الله ما تم النجاح في هذا الأمر، والمطالبة بحمد الله وشكره عــلى هذا التوفيق، عند ذلك تكون هذه العبارات قد أدت غرضها في بناء الثقة، دون

أن تتسبب في ذبح الممدوح مع الوضع في الاعتبار أنها تستخدم في وقت الحاجة والضرورة فقط لتعريف الشخص بإمكاناته وبناء ثقته بها.

٣ - القيام بخدمة الناس والعمل للإسلام وتأثيره السلبي على النفس

قد يقول قائل: إذا كانت الأضواء والاحتكاك بالناس، لها دور كبير في تضخيم الذات والشعور بالاستعلاء على الآخرين، فمن الأولى ترك العمل للإسلام، والانعزال عن الناس.

والسؤال هنا: إذا فعلت ذلك فهل تأمن على نفسك من عدم دخول العُجب إليك بعزلتك هذه؟!

إن العُجب داء خبيث له مداخله المتعددة -كما مر علينا- وقد يستولي على الإنسان من خلال ما يتاح أمامه من أفكار ترد على العقل، أو أفعال تقوم بها الجوارح، فهل المعتزل في بيته سيظل ساكنًا في مكانه لا يفكر في شيء، ولا يفعل شيئًا؟!

إن الحل ليس في العزلة؛ فلو ذهب أحدنا إلى كهف مظلم لا يراه فيه أحد من الناس، ولا يتعامل معه أحد، فهو بذلك لن ينجو من الإعجاب بنفسه!

فالحل إذن في مقاومة هذا الداء، وتجفيف منابعه أولًا بأول، بمعنى أننا لن نستطيع أن نغلق الباب أمام العُجب إلا من داخلنا وليس من خارجنا.

هذه واحدة، والثانية أن مخالطة الناس تكشف للفرد الكثير من عيوبه، وتنبهه إلى أشياء لم تكن تخطر له على بال.

ولكن هذه المخالطة -كما مر علينا- ينبغي أن تكون في الخير لا في الشر.

وا إسلاماه!

النقطة الثالثة أننا لسنا مخيرين في ترك الناس، فوضع الأمة الإسلامية في هذا العصر، وما حدث لها من تفكك وتشرذم، واستعلاء أعدائها عليها، وتحكمهم فيها... هذا كله يستوجب العمل للإسلام، ومخالطة الناس ودعوتهم إلى الله، ومساعدتهم في تغيير ما بأنفسهم ليغير الله ما بنا وبهم، ويصرف عنا عذابه الذي حاق بنا.

تخيل أننا جميعًا قد تركنا الناس، وانصرف كلٌّ منا إلى شأنه الخاص!

من يا ترى سيقف أمام المخطط الصهيوني الرامي إلى محو شخصية المسلمين وهويتهم والقضاء عليهم؟!

من سيقف أمام العلمانيين الذين يريدون فصل الدين عن الحياة؟!

من سيواجه حملات التبشير الصليبي التي تتوالى على المسلمين في إفريقيا وآسيا، ونجحت بالفعل في تنصير العديد منهم؟!

مَنْ للغافلين؟! مَنْ للشاردين من المسلمين هنا وهناك؟!

ضرورة التوازن

من هنا يتضح لنا أن عملنا للإسلام لا ينبغي أن يكون على حساب عملنا مع أنفسنا، كما أن عملنا مع أنفسنا لا ينبغي أن يكون على حساب عملنا للإسلام.

ويؤكد ذلك الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤].

فيقول: والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع، ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم؛ حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم

بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له... فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر، على أصح قولي العلماء من السلف والخلف[١].

لتكن لك عينان

لا بد إذن أن يكون لكل منا عينان وهو يسير في هذه الحياة: عين يتحرك بها وسط الناس يدعوهم ويوجههم لفعل الخير، وعين يراقب بها نفسه، ويتعاهدها بما يصلحها.

٤ - كراهية تقديم النفس وتعارضها مع ما فعله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ

هناك آيات وأحاديث عديدة تنهي المسلم عن تقديم نفسه، وتطالبه بعدم سؤال الإمارة أو الحرص عليها؛ لما في ذلك من فتنة عظيمة: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢].

عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من بني عمي، فقال أحدهما: أمِّرنا على بعض ما ولاك الله عَزَّوَجَلَّ، وقال الآخر مثل ذلك، فقال: «**إِنَّا وَاللهِ لا نُوَلِّي هَذَا الْعَمَلَ أَحَدًا سَأَلَهُ أَوْ أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ**»[٢].

حب النفس للرئاسة

إن حب الرئاسة أمر كامن في النفس، فمن خلالها تحقق أسمى شهواتها في التميز والعلو على الآخرين، وهي آخر ما يخرج من القلوب. كما قال أحد الصالحين: آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الرئاسة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير.

(٢) رواه البخاري (٨/ ١٣٦ برقم: ٧١٤٩) ومسلم (٣/ ١٤٥٦ برقم: ١٧٣٣).

ومـن أراد أن يـدرك مدى حـب النفس للرئاسـة وتلذذها بها، فلينظـر إلى حاله عندمـا يطلـب منـه ترك موقعـه أو المسـئولية المناطـة به والعـودة للخلـف.. ليتخيل حجـم الغصـة والمـرارة التـي يعاني منهـا في مثل هـذا الموقـف، تمامًا كحـال الرضيع الـذي يسـتلذ بالرضاعـة، ويغتـم بالفطـام، كـما قـال رسـول الله ﷺ: «**إِنَّكُـمْ سَـتَحْرِصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ، وَسَـتَكُونُ نَدَامَةً يَـوْمَ الْقِيَامَةِ. فَنِعْمَتِ الْمُرْضِعَةُ وَبِئْسَـتِ الْفَاطِمَةُ**»[1].

خطورة مدح النفس

فـإن كانـت الرئاسـة لهـا هـذه المخاطـر، فتزكيـة المـرء لنفسـه وتقديمهـا أمـام الآخريـن للقيـام بعمـل مـا، لهـا أيضًـا مخاطـر عظيمـة، ولم لا وفيهـا نوع مـن أنواع الوثـوق بالنفـس والاعتـماد عليهـا، وهـذا منهـي عنـه -كـما مـر علينـا، فثقـة المـرء المحمـودة بنفسـه مبعثهـا ثقته بـما حباه الله مـن إمكانـات تتوقف فاعليتهـا على المدد الإلهـي المتواصـل... معنـى ذلـك أنـه لا يسـتطيع أن يدَّعـي أن لـه قـدرات ذاتيـة تسـتطيع فعـل الـشيء الـذي يريـده في الوقـت الذي يريـده، فالأمـر ليس بيـده، بل بيد الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

[الكهف: ٢٣، ٢٤].

فهل مع أحدنا تفويض من الله عَزَّوَجَلَّ بأنه يستطيع فعل ما يقدم نفسه له؟! ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

[القلم: ٣٩، ٤٠].

ومن مخاطــر تقديم النفس أنها تعكس اســتعظام صاحبها لهــا، ورؤيتها بعين

---

(١) صحيح البخاري (برقم: ٧١٤٨) كتاب الأحكام باب ما يكره من الحرص على الإمارة (٨/ ١٣٦).

الاستعلاء والأفضلية على غيرها، مما يُعرِّض صاحبها لمقت الله، وحرمان التوفيق في هذا العمل الذي أراد القيام به.

يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وطلبه المسئولية

فإن قلت: ولكن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ طلب المسئولية لنفسه، فكيف يمكن التوفيق بين النهي عن طلب المسؤولية وما فعله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقوله: ﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف: ٥٥].

المتأمل لما حدث مع يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد تأويله لرؤيا الملك، يجد أن ملك مصر قد أعجب به وبما عنده من إمكانات.. هذا الإعجاب دفعه لاختياره لأن يكون بجواره: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يوسف: ٥٤].

إذن فيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد سُلطت عليه الأضواء، وأصبح من الخواص عند الملك؛ ومن ثم دخل دائرة التكليف. هنا اختار لنفسه المجال الذي يظن أنه قد يحسن فيه بتوفيق من الله، ولم لا وهو العبد المعترف دومًا بفضل الله عليه فيما حباه من إمكانات؟!

ألم يقل لصاحبي السجن عندما طلبا منه تفسير أحلامهما؟ ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ [يوسف: ٣٧]. فإذا كان المرء في نفس الحالة التي كان فيها يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ولا مناص له من التكليف، فلا بأس أن يختار لنفسه المجال الذي يرى أن إمكاناته التي حباه الله إياها تؤهله للقيام به، مع يقينه بتوقف ذلك كله على عون الله ومدده المستمر له.

ضوابط تقديم النفس

ومع ذلك، فهناك ضوابط ينبغي مراعاتها إذا ما اضطر شخص إلى تقديم نفسه، وقد ذكرها د. عادل الشويخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (تقويم الذات)، ونجملها في هذه النقاط:

١ - الأصل هو عدم طلب المسئولية أو الإمارة أو عمل بعينه، والاستثناء هو طلبها لمصلحة راجحة لا ظنية، مثل الذي يتقن لغة من اللغات، ولا يعرف بذلك أحدًا ممن حوله، فله أن يعرفهم بذلك، ويقدم نفسه لهم إذا ما وجدهم يبحثون عمن يترجم لهم مقالة بهذه اللغة إلى لغتهم.

٢ - أن يكون الناس من حوله يجهلون عنه الشيء الذي يحسنه، أما إذا كانوا يعرفونه فليس له أن يقدم نفسه بأي حال من الأحوال، مع الأخذ في الاعتبار أن الشيطان يدخل للواحد منا من باب أن مصلحة الدين، ومصلحة الدعوة أن يكون في المقدمة، فهو صاحب جهد مميز، وتجربة عظيمة، وما يريد أن يقوم به من عمل لا يستطيع أن يقوم به غيره، فخوفه على الدعوة يستدعي منه تقديم نفسه، وتشبثه بمكانه في المقدمة.

هذه التصورات -لو كانت صحيحة- فليس من شأن صاحبها أن يدعيها أو يصرح بها، ولكنها من شأن من حوله، فهم يعرفونه جيدًا، ويحرصون على مصلحة الدين كما يحرص. ومما يدعو للأسف أن غالب مثل هذه الادعاءات تدل على رؤية صاحبها لنفسه بعين التعظيم، وأن منطلقه الأساسي هو مصلحة نفسه قبل مصلحة الدعوة، ولو كان صادقًا في ادعاءاته، ما زكى نفسه، ولَسَعِد باختيار غيره -إذا ما حدث- وعمل معه وهو في الظل بنفس الهمة والجهد والنشاط كما لو كان مكانه.

٣ - عندما تترجح المصلحة الدينية الحقيقية، ويضطر المرء إلى تقديم نفسه للآخرين للقيام بعمل ما، فعليه أن يقرن ذلك بأن ما يدَّعيه عن نفسه فهو بتوفيق الله

وفضله وكرمه، ولولاه سبحانه ما كان كذلك: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٥ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ۝١٦ ﴾

[النمل: ١٥، ١٦].

٤ - ومـن الضوابط كذلك: عدم المبالغة في مـدح النفس، بل بقدر، وبكلمات قليلة تؤدي الغرض، وليعلم كل من يضطر لذلك أن كل كلمة يقولها عن نفسـه تعد بمثابة سـهم يوهن قلبه، ويفتح الباب لفتنة عظيمـة أمامه، فليقلل قدر الإمكان من هذه السهام، وليسـارع بعد ذلك بمناجاة الله أن يحفظه من شرها ويطلب منه العفو والمغفرة، وليردد: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

اختبار الصدق

من علامات صدق من يقدم نفسـه من أجل مصلحة دينية لا مصلحة شخصية أنه إذا لم يوافق على طلبه، أو يقع عليه الاختيار يسعد بذلك ويفرح فرحًا شديدًا؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قد عصمه من التعرض لفتنة المسـئولية والتصدي وتسلط الأضواء عليه، وفى الوقت نفسه فقد أدى ما عليه، ولم يكتم ما عنده مما حباه الله وتفضل به عليه.

فإن حزن وتضايـق، ووجد حربًا في صدره من عدم اختياره لها، فهذا دليل على عدم الصدق، فليستغفر الله، وليداوِ نفسه بمثل ما سبق من وسائل، وليبالغ في تكلف التواضع وصوره المختلفه، والله المستعان.

• • •

الخاتمـــة

وبعد...

ألا توافقني -أخي الحبيب- أن العبرة ليست في القيام بالعمل الصالح فقط، بل لا بد من المحافظة عليه، وعدم السماح للنفس بالاستيلاء عليه، وجعله وسيلة لشموخها واستعلائها على الآخرين.

فلننتبه لأنفسنا، ولنحذرها، ولنستعن بالله عليها، ولنقف لداء العُجب بالمرصاد.

نعم، الوسائل كثيرة؛ لأن الأمر صعب، والنفس ملازمة لنا، ومحبوبة لدينا، والداء خبيث لا يمكن لأحد أن يهرب منه، ولا حل أمامنا إلا مواجهته، ومقاومته بوسائل متعددة.

ولعلك -أيها القارئ الكريم- تلاحظ أن الجامع المشترك لأغلب الوسائل المذكورة في صفحات الكتاب هو القرآن، ولم لا وقد وصفه ربنا بقوله: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾؟ [فصلت: ٤٤].

فلنُقبل على القرآن، ولنُعطه أفضل أوقاتنا، ولنُحسن التعامل معه، والاستشفاء بشفائه.

وفي النهاية

أخي الحبيب..

يعلم الله عَزَّوَجَلَّ أن من أهم ما دفعني لكتابة تلك الصفحات هو خوفي عليك أن تقع فيما وقعت فيه، فابدأ معي من الآن، وهيا نسقي أنفسنا دواءها، لتحسن استقامة خطواتنا إلى الله.

فهل لي منك دعوة صادقة تدعوها لي في وقت صفائك وإقبالك على الله؟!

هل لك أن تدعو لي بالشفاء مما تلبس بي من هذا الداء الخبيث؟!

هل لك أن تدعو لي ولك أن يعظم الله قدره عندنا، ويصغر قدر أنفسنا في أعيننا، ويقينا شرها، وأن يثبتني وإياك على الحق حتى نلقاه وهو راضٍ عنا، فيسكننا بفضله جنته، ويجعلنا ممن قال فيهم:

﴿ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحجر: ٤٧]؟!

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

• • •

الفهـرس

الفصل الثالث

مظاهر الإعجاب بالنفس وتضخم الذات

الفصل الرابع

خطورة الإعجاب بالنفس

الباب الثاني
كيف نزيل أصنامنا

الفصل الأول
طلب العلاج من الله

الفصل الثاني

معرفة الله عَزَّوَجَلَّ ودورها في علاج العجب

الفصل الثالث

معرفة حقيقة الإنسان وطبيعة النفس

الفصل الخامس

إغلاق الأبواب أمام النفس

الفصل السادس

العــلاج بالقـــــرآن

الفصل السابع

التعاهد والتربية ودورهما في علاج العجب

الفصل الثامن

شبهات يجب أن تُزال

• • •